توضيح المهمات

شرح

«منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات»

للعلامة الأصولي

مُحَمَّد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي

(1325هـ – 1393هـ)

شرح فضيلة الشيخ

عادل السيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلَّى الله تعالى عليه وعلى أبويه الرسولين النبيين الكريمين إبراهيم وإسماعيل وعلى كلِّ النبيين والمرسلين وآل كلٍّ وسلَّم تسليما كثيرا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، أعاذنا الله وإياكم من النار وما يقرب إليها من قول أو عمل أو اعتقاد.

أما بعد...

لقد كرَّم الله تعالى آدم عليه السلام وأبناءه وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وذلك أن الله {عَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" وبعد ظهور تفوقه على الملائكة أمرهم الله بالسجود لآدم المكلَّم المعلَّم من قِبَل رب العالمين فقال الله لهم: {اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}

ثم بعد ذلك أنزل الله آدم إلى الأرض لكي يقيم الخلافة التي خلقه من أجلها لتحقيق العبودية على الأرض التي كلَّفه وأبناءه بها فقال سبحانه {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} أي: إلا ليوحدوني ويعرفوني بأسمائي الحسنى وصفاتي العليا، ولذلك لم يتركهم لإدراك ذلك بعقولهم بل قال لآدم ووعده: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا* قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}، وحقَّقَ الله وعده فأرسل لبني آدم {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}، وأمرهم باتباع ما أُنزل إليهم من ربهم ونهاهم أن يتبعوا من دونه أولياء وكانت خاتمة رسالاته الكريمة هي رسالة سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الذي آتاه الله الرسالة النهائية ليبلغ بها الناس في زمانه ومن بعد زمانه وإلى قيام الساعة، وذكر أن هذه الرسالة كاملة وتامة وأن الناس لا يحتاجون معها إلى غيرها، وما عليهم إلا أن يذعنوا لها ويُقبلوا عليها دارسين فاهمين متفكرين فيها متدبرين إياها {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}، وتمثلت هذه الرسالة في الكتاب الذي وصفه بقوله{وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقال {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، وقال { قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}، وقال {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}، وقال: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، وقال {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تُحصَى، ولقد نزل القرآن الكريم هادياً وشافياً ونوراً للعقول والقلوب التي تؤمن به في جميع الأمور التي لو ترك العقل وشأنه لضل فيها ضلالاً مبيناً وعجز عن الوصول إلى الحق، وهذه الأمور هي:

- العقائد: فلا سبيل للوصول للحق في العقائد وما أمر الإنسان بالإيمان به إلا بالوحي فقط، فلا سبيل للعقل في باب العقائد إلا الإذعان الكامل
- المبادئ الأخلاقية إجمالاً وتفصيلاً: وهي أمور الخير والفضيلة وما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني فهي غير متروكة للعقول ولا للآراء البشرية.

- التشريع للمعاملات: في قواعده العامة، وفي بعض تفصيلاته، وتمتاز تلك القواعد العامة بأنها تتضمن وتَسَعُ الجزئيات على مَرِّ الزمان وعلى اختلاف الهيئات والأماكن والأشخاص.
- العبادات التي يتقرب بها العبد لربه: فهي غير متروكة كذلك للعقول؛ لأن العقول لا تستطيع الوصول إلى معرفة العبادات التي يريد من الناس أن يتعبدوه بها، ولذلك كانت كل بدعة ضلالة؛ فالناس مأمورون أن يتبعوا ولا يبتدعوا فقد كفتهم الشريعة ذلك، ولا شك أن الناس لو تركوا وعقولهم في هذه القضايا فإنهم يختلفون ولن يصلوا إلى الحق.

أما أمور المعاش والتعامل مع الطبيعة وشئون الكون التي خلقها الله وسخرها للإنسان مثل استغلال الجبال والبحار والأرض والنظر في السماء والتعامل مع المادة والطاقة والكائنات الحية وغيرها فكل ذلك متروك للإنسان يدرسه في مصنعه ومعمله ومعهده بآلاته وأدواته، وشعاره: "أنتم أعلم بأمور دنياكم"([1])

فحينما نسمع عبارة "الإسلام دين العقل" ينبغي أن نُقيِّدَها بهذه المفاهيم فحينما نقرأ قوله تعالى {لعلهم يتفكرون}، {لقوم يعقلون}، {وما يعقلها إلا العالمون} وأمثالها من آيات الأمر بالتدبر والنظر والتفكر فإنما نفهم من ذلك أنه أراد منا الاعتبار، وكأنه يقول لنا: تفكروا وتدبروا وانظروا لتروا أن ذلك هو الحق، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير، أمَّا إذا رأيتم غير ذلك الذي ذكرته لكم فاعلموا أن العيب في بصركم أو في بصيرتكم، وإذا رأيتم غير ذلك فإن الفساد في عقولكم وفي تفكيركم، وإذا رأيتم غير ذلك فاعلموا أن فطرتكم قد فسدت لانحرافكم وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلَّت {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} وأن عقولكم قد صَدِئَت فأصبحت لا ترى الحق حقاً ولا الخير خيراً، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً والشر خيراً، وأصبح أصحابها كالأنعام بل هم أضل سبيلاً، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم.

إن الله –في عظمته وجلاله سبحانه وتعالى– لا يُلقِي برسالته ليبحثَها الإنسانُ ويُدِلي رأيَه فيها نفياً أو إثباتاً، سلباً أو إيجاباً، كلا، بل كلُّ من تَوَهَمَ ذلك فإنه لا يقدر الله حقَّ قدره، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما ألقى الله رسالاته لتُتَّبع في خضوع وإخبات، ولتُتَّبع دون حرج يحيك في الصدور أو شكٍّ يجول في النفوس.

قال الله: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}

[1]) رواه مسلم في صحيحه برقم (2363) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقال: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}

وكلُّ من وجد في نفسه حرجاً من قضايا الدين، وكل من لم يُسَلِّم تسليماً كاملاً مطلقاً تاماً لنصوص الوحي جميعها فإن عليه أن يراجع إيمانه ليصححه وأن يتوب إلى الله توبة نصوحاً، فعلى المسلم ألا يتأسَّى بإبليس لما أمر بالسجود لآدم فامتنع عن الإذعان لأمر الله وقال: {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، وقَالَ {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} ، وكل من يُفلسِف وحيَ الله لكي يَتَمَلَّصَ من الامتثال له أو يصرفَه عن مرادِه الظاهرِ منه فإمامه إبليس؛ فالوحيُ نزل ليكون مُلزِماً للعالمين، {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا }، ونزل ليبلغ أن هذه الرسالة صدقٌ كلها، وحقٌّ جميعها، ليس فيها مبدأٌ مشكوك فيه، ولا قضيةٌ تحتمل الصدق والكذب، وليس فيها جملةٌ زائدةٌ، ولا كلمةٌ ليست في موضعها، ولا حرف كان يحسن ألَّا يوجد، كلا إنها الحقُّ الخالصُ، من اتبعها فقد اهتدى، ومن حاد عنها فقد انحرف، ومن ابتغى الهُدَى في غيرها فقد أضله الله، ومن تركها من جبار قصمه الله لأنها صراط الله المستقيم ونوره اللألاء.([2])

فإذا عرفت ما سبق وتحققته وتبينت ما فيه فما رأيك حينئذ في قول السِّنوسيِّ إمام الأشاعرة في زمنه:

«أصول الكفر ستة: ... -ثم يقول- السادس: التمسُّك في أصول العقائد بظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة في العقل وهو أصل ضلال الحشويَّة»([3])

وقول الصاوي في تعليقه على تفسير الجلالين (9/3):

«الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر»

وقد بَيَّنَ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي بطلان قول الصاوي هذا في بحثٍ ماتعٍ في تفسير قوله تعالى {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} قائلًا:

---

[2]) مستفاد من كتاب "الاسلام والعقل" لفضيلة الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر الأسبق (وله في هذا الكتاب حملة شديدة على الفلسفة وعلم الكلام) فراجعه فهو مهم جدًا.

[3]) (شرح أم البراهين صـ 314).

«واعلم أيها المسلم المنصف أنه من أشنع الباطل وأعظم القول بغير الحق على الله وكتابه وعلى النبيِّ وسنته المطهرة ما قاله الشيخ أحمد الصَّاوي في حاشيته على الجلالين في سورة الكهف وآل عمران واغترَّ بقولِه خلقٌ لا يحصى من المتَسَمِّين باسم طلبة العلم، لكونهم لا يميزون بين حق وباطل»

ثم نقل كلامه المذكور أعلاه ثم قال معلقا: «فانظر يا أخي رحمك الله ما أشنع هذا الكلام وما أبطله، وما أجرأ قائله على الله وكتابه وعلى النبي صلى الله عليه وسلم وسنته وأصحابه، سبحانك هذا بهتان عظيم».

ثم قال:

«والتحقيق الذي لا شك فيه، وهو الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعامة علماء المسلمين: أنه لا يجوز العدول عن ظاهر كتاب الله وسنة رسوله في حال من الأحوال بوجهٍ من الوجوه حتى يقوم دليل صحيح شرعي صارف عن الظاهر إلى المحتمَل المرجوح.

والقول بأن العمل بظاهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، لا يصدر ألبتة عن عالم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنما يصدر عمن لا علم له بالكتاب والسنة أصلاً، لأنه لجهله بهما يعتقد ظاهرهما كفراً، والواقع في نفس الأمر أن ظاهرهما بعيد مما ظنه أشد من بعد الشمس من اللمس".

ثم قال بعد تصحيحه للخطأ الجسيم الذي وقع فيه الصاوي في تفسير آية سورة الكهف {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله}، وبيانه للتفسير الصحيح الموافق لتفسير السلف:

"ومما يزيد ما ذكرنا إيضاحاً ما قاله الصاوي أيضاً في سورة آل عمران في الكلام على قوله تعالى {فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله}، فإنه قال على كلام الجلال ما نصُّه:

("زيغٌ" أي: ميل عن الحق للباطل، قوله (بوقوعهم في الشبهات واللبس): أي كنصارى نجران ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظاهر القرآن، فإن العلماء ذكروا أن من أصول الكفر الأخذ بظواهر الكتاب والسنة) أ هـ

فانظر رحمك الله، ما أشنع هذا الكلام وما أبطله، وما أجرأ قائله على انتهاك حرمات الله وكتابه ونبيه وسنته صلى الله عليه وسلم، وما أدلَّه على أن صاحبه لا يدري ما يتكلم به، فإنه جعل ما قاله نصارى نجران هو ظاهر كتاب الله، ولذا جعل مثلهم من حذا حذوهم فأخذ بظاهر القرآن، وذكر أن العلماء قالوا : (إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر) ، مع أنه لا يدري وجه ادعاء نصارى نجران على ظاهر القرآن أنه كفر، مع أنه مُسلِّم أن ادعاءهم –على ظاهر القرآن أنه كفرٌ– هم ومن حذا حذوهم ادعاءٌ صحيح إلا أن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر([4])، وقد قال قبل هذا: (قيل: سبب نزولها أن وفد نجران قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم:

ألست تقول: إن عيسى روح الله وكلمته؟ فقال: نعم، فقالوا: حسبنا، أي: كفانا ذلك في كونه ابن الله، فنزلت الآية).

فاتضح أن الصاوي يعتقد أن ادعاء نصارى نجران أن ظاهر قوله تعالى "وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" هو أن عيسى ابن الله ادعاءٌ صحيح، وبنى على ذلك أن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر.

وهذا كله من أشنع الباطل وأعظمه، فالآية لا يفهم من ظاهرها ألبتة، بوجه من الوجوه، ولا بدلالة من الدلالات أن عيسى ابن الله، وادعاء نصارى نجران ذلك كذب بحت.

فقولُ الصاوي: (كنصارى نجران ومن حذا حذوهم ممن أخذ بظواهر القرآن) صريحٌ في أنَّه يعتقد أنَّ ما ادَّعاه وفد نجران –من كون عيسى ابن الله هو ظاهر القرآن– اعتقادٌ باطلٌ باطلٌ باطلٌ، حاشا القرآن العظيم أن يكون هذا الكفر البواح ظاهره، بل هو لا يدل عليه ألبتة فضلاً عن أن يكون ظاهره، وقوله تعالى: {روح منه} كقوله تعالى {وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه} أي: كلٌّ ذلك من عيسى ومن تسخير السماوات والأرض مبدؤه ومنشؤه من الله جل وعلا.

---

[4]) الجملة صحيحة ولكن للأسف فإن المؤلف لم يحسن صياغتها فأصبح فهمها صعبا على القارئ، وهو يقصد: أن الصاوي مسلم بأن ادعاء النصارى على ظاهر القرآن حينما قال {وروح منه} أنه يؤدي إلى أن المسيح ابن الله، وهذا الظاهر الذي فهموه كفر، وقوله (هم ومن حذا حذوهم) يعني ممن فهموا ظواهر القرآن التي تفيد التشبيه –فهذا الادعاء في نظره صحيح، وكان يرد على النصارى الذين فهموا ذلك والمشبهين –في زعمه– الآخذين بظواهر القرآن والسنة، بأن العلماء قالوا: إن الأخذ بظواهرها كفر.

فلفظه (مِن) في الآيتين لابتداء الغاية، وذلك هو ظاهر القرآن، وهو الحق خلافاً لما زعمه الصاوي وحكاه عن نصارى نجران.

وقد اتضح بما ذكرنا أن الذين يقولون: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر، لا يعلمون ما هي الظواهر، وأنهم يعتقدون شيئاً ظاهر النص، والواقع أن النص لا يدل عليه بحال من الأحوال فضلاً عن أن يكون ظاهره فبنوا باطلاً على باطل، ولا شك أن الباطل لا يُبنى عليه إلا الباطل، ولو تصوروا معاني ظواهر القرآن والسنة على حقيقتها لمنعهم ذلك من أن يقولوا ما قالوا).

ثم يقول الشنقيطي مُتمِّما الردَّ عليه:

(ومن هم العلماء الذين قالوا: إن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر؟ سمُّوهم لنا، وبَيِّنُوا لنا من هم؟

والحق الذي لا شك فيه أن هذا القول لا يقوله عالم، ولا متعلم؛ لأن ظواهر الكتاب والسنة هي نور الله الذي أنزله على رسوله ليُستضاءَ به في أرضه وتُقامَ به حدودُه، وتُنَفَّذَ به أوامرُه، ويُنصَفَ به بين عباده في أرضِه.

والنصوصُ القطعيةُ التي لا احتمال فيها قليلة جداً لا يكاد يوجد منها إلا أمثلة قليلة جداً كقوله تعالى {فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة}، والغالب الذي هو الأكثر هو كون نصوص الكتاب والسنة ظواهر.

وقد أجمع جميع المسلمين على أن العمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه إلى المحتمَل المرجوح، وعلى هذا كل من تكلم في الأصول.([5])

فَتَنْفِيرُ النَّاسِ وَإِبْعَادُهَا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، بِدَعْوَى أَنَّ الْأَخْذَ بِظَوَاهِرِهِمَا مِنْ أُصُولِ الْكُفْرِ هُوَ مِنْ أَشْنَعِ الْبَاطِلِ وَأَعْظَمِهِ كَمَا تَرَى.

وَأُصُولُ الْكُفْرِ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَحْذَرَ مِنْهَا كُلَّ الْحَذَرِ، وَيَتَبَاعَدَ مِنْهَا كُلَّ التَّبَاعُدِ وَيَتَجَنَّبَ أَسْبَابَهَا كُلَّ الِاجْتِنَابِ فَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمُنْكَرِ الشَّنِيعِ وُجُوبُ التَّبَاعُدِ مِنَ الْأَخْذِ بِظَوَاهِرَ الْوَحْيِ.

---

[5]) **وانظر تفسير النص والظاهر والمؤول في كتابنا هذا صـ (125 – 126).**

وَهَذَا كَمَا تَرَى، وَبِمَا ذَكَرْنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الضَّلَالِ ادِّعَاءَ أَنَّ ظَوَاهِرَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ قَبِيحَةٍ، لَيْسَتْ بِلَائِقَةٍ.

وَالْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُعْدُهَا وَبَرَاءَتُهَا مِنْ ذَلِكَ.

وَسَبَبُ تِلْكَ الدَّعْوَى الشَّنِيعَةِ عَلَى ظَوَاهِرِ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، هُوَ عَدَمُ مَعْرِفَةِ مُدَّعِيهَا.

وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْبَلِيَّةِ الْعُظْمَى، وَالطَّامَّةِ الْكُبْرَى، زَعَمَ كَثِيرٌ مِنَ النُّظَّارِ الَّذِينَ لَيس عِنْدَهُمْ فَهْمٌ، أَنَّ ظَوَاهِرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثَهَا غَيْرُ لَائِقَةٍ بِاللَّهِ، لِأَنَّ ظَوَاهِرَهَا الْمُتَبَادِرَةَ مِنْهَا هُوَ تَشْبِيهُ صِفَاتِ اللَّهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، وَعَقَدَ ذَلِكَ الْمَقَّرِيُّ فِي إِضَاءَتِهِ فِي قَوْلِهِ:

وَالنَّصُّ إِنْ أَوْهَمَ غَيْرَ اللَّائِقِ بِاللَّهِ كَالتَّشْبِيهِ بِالْخَلَائِقِ

فَاصْرِفْهُ عَنْ ظَاهِرِهِ إِجْمَاعَا وَاقْطَعْ عَنِ الْمُمْتَنِعِ الْأَطْمَاعَا ([6])

وَهَذِهِ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةُ مَنْ أَعْظَمِ الِافْتِرَاءِ عَلَى آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَحَادِيثِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَنَّ ظَوَاهِرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِهَا الْمُتَبَادِرَةِ مِنْهَا، لِكُلِّ مُسْلِمٍ رَاجَعَ عَقْلَهُ، هِيَ مُخَالَفَةُ صِفَاتِ اللَّهِ لِصِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ نَتَسَاءَلَ هُنَا، فَنَقُولُ:

أَلَيْسَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ مُخَالَفَةَ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ؟

وَالْجَوَابُ الَّذِي لَا جَوَابَ غَيْرُهُ: بَلَى.

وَهَلْ تَشَابَهَتْ صِفَاتُ اللَّهِ مَعَ صِفَاتِ خَلْقِهِ حَتَّى يُقَالَ إِنَّ اللَّفْظَ الدَّالَّ عَلَى صِفَتِهِ تعَالَى ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ تَشْبِيهُهُ بِصِفَةِ الْخَلْقِ؟

وَالْجَوَابُ الَّذِي لَا جَوَابَ غَيْرُهُ :لَا.

فَبِأَيِّ وَجْهٍ يَتَصَوَّرُ عَاقِلٌ أَنَّ لَفْظًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مَثَلًا دَالًّا عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ أَثْنَى بِهَا تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ يَكُونُ ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ مُشَابَهَتَهُ لِصِفَةِ الْخَلْقِ؟ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ؛ فَالْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ مُتَخَالِفَانِ كُلَّ التَّخَالُفِ وَصِفَاتُهُمَا مُتَخَالِفَةٌ كُلَّ التَّخَالُفِ.

---

[6]) هو كتاب «إضاءة الدجنة» للمَقَّرِيّ التلمسانيّ المغربي المالكي.

فَبِأَيِّ وَجْهٍ يُعْقَلُ دُخُولُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ فِي اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى صِفَةِ الْخَالِقِ؟ أَوْ دُخُولُ صِفَةِ الْخَالِقِ فِي اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى صِفَةِ الْمَخْلُوقِ مَعَ كَمَالِ الْمُنَافَاةِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ؟

فَكُلُّ لَفْظٍ دَلَّ عَلَى صِفَةِ الْخَالِقِ ظَاهِرُهُ الْمُتَبَادِرُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ لَائِقًا بِالْخَالِقِ مُنَزَّهًا عَنْ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ، وَكَذَلِكَ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَى صِفَةِ الْمَخْلُوقِ لَا يُعْقَلُ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ صِفَةُ الْخَالِقِ.

فَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ مِنْ لَفْظِ الْيَدِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِ، هُوَ كَوْنُهَا جَارِحَةً هِيَ عَظْمٌ وَلَحْمٌ وَدَمٌ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَتَبَادَرُ إِلَى الذِّهْنِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى : {فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}، وَالظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْيَدِ بِالنِّسْبَةِ لِلْخَالِقِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى{ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} أَنَّهَا صِفَةُ كَمَالٍ وَجَلَالٍ لَائِقَةٌ بِاللَّهِ –جَلَّ وَعَلَا– ثَابِتَةٌ لَهُ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ – جَلَّ وَعَلَا – عِظَمَ هَذِهِ الصِّفَةِ وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ، وَبَيَّنَ أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ التَّأْثِيرِ كَالْقُدْرَةِ، قَالَ تَعَالَى فِي تَعْظِيمِ شَأْنِهَا {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

وَبَيَّنَ أَنَّهَا صِفَةُ تَأْثِيرٍ كَالْقُدْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فَتَصْرِيحُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ خَلَقَ نَبِيَّهُ آدَمَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ من صِفَاتِ كَمَالِهِ وَجَلَالِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مِنْ صِفَاتِ التَّأْثِيرِ كَمَا تَرَى.

وَلَا يَصِحُّ هُنَا تَأْوِيلُ الْيَدِ بِالْقُدْرَةِ الْبَتَّةَ، لِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، كُلِّهِمْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَثْنِيَةُ الْقُدْرَةِ.

وَلَا يَخْطُرُ فِي ذِهْنِ الْمُسْلِمِ الْمَرَاجِعِ عَقْلَهُ دُخُولُ الْجَارِحَةِ الَّتِي هِيَ عَظْمٌ وَلَحْمٌ وَدَمٌ فِي مَعْنَى هَذَا اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ صِفَاتِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

فَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمُدَّعِي –أَنَّ ظَاهِرَ لَفْظِ الْيَدِ فِي الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ وَأَمْثَالِهَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهَا التَّشْبِيهُ بِجَارِحَةِ الْإِنْسَانِ، وَأَنَّهَا يَجِبُ صَرْفُهَا عَنْ هَذَا الظَّاهِرِ الْخَبِيثِ، وَلَمْ تَكْتَفِ بِهَذَا حَتَّى ادَّعَيْتَ الْإِجْمَاعَ عَلَى صَرْفِهَا عَنْ ظَاهِرِهَا – أَنَّ قَوْلَكَ هَذَا كُلَّهُ افْتِرَاءٌ عَظِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعَلَى كِتَابِهِ الْعَظِيمِ، وَأَنَّكَ بِسَبَبِهِ كُنْتَ أَعْظَمَ الْمُشَبِّهِينَ وَالْمُجَسِّمِينَ، وَقَدْ جَرَّكَ شُؤْمُ هَذَا التَّشْبِيهِ إِلَى وَرْطَةِ التَّعْطِيلِ، فَنَفَيْتَ الْوَصْفَ الَّذِي أَثْبَتَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لِنَفْسِهِ بِدَعْوَى أَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهِ، وَأَوَّلْتَهُ بِمَعْنًى آخَرَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ كِتَابٍ، وَلَا سُنَّةٍ، وَلَا إِجْمَاعٍ، وَلَا قَوْلِ أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَمَاذَا عَلَيْكَ لَوْ صَدَّقْتَ اللَّهَ، وَآمَنْتَ بِمَا مَدَحَ بِهِ نَفْسَهُ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ مِنْ غَيْرِ كَيْفٍ، وَلَا تَشْبِيهٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ؟، وَبِأَيِّ مُوجِبٍ سَوَّغْتَ لِذِهْنِكَ أَنْ يَخْطُرَ فِيهِ صِفَةُ الْمَخْلُوقِ عِنْدَ ذِكْرِ صِفَةِ الْخَالِقِ؟ هَلْ تَلْتَبِسُ صِفَةُ الْخَالِقِ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِ عَنْد أَحَدٍ حَتَّى يَفْهَمَ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ مِنَ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى صِفَةِ الْخَالِقِ؟

فَاخْشَ اللَّهَ يَا إِنْسَانُ، وَاحْذَرْ مِنَ التَّقَوُّلِ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ، وَآمِنْ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَ تَنْزِيهِ اللَّهِ عَنْ مُشَابَهَةِ خَلْقِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَحَاطَ عِلْمُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَصْفِ اللَّائِقِ بِهِ وَالْوَصْفِ غَيْرِ اللَّائِقِ بِهِ، حَتَّى يَأْتِيَ إِنْسَانٌ فَيَتَحَكَّمَ فِي ذَلِكَ فَيَقُولَ :هَذَا الَّذِي وَصَفْتَ بِهِ نَفْسَكَ غَيْرُ لَائِقٍ بِكَ، وَأَنَا أَنْفِيهِ عَنْكَ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْكَ، وَلَا مِنْ رَسُولِكَ، وَآتِيكَ بَدَلَهُ بِالْوَصْفِ اللَّائِقِ بِكَ فَالْيَدُ مَثَلًا الَّتِي وَصَفْتَ بِهَا نَفْسَكَ لَا تَلِيقُ بِكَ لِدَلَالَتِهَا عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْجَارِحَةِ، وَأَنَا أَنْفِيهَا عَنْكَ نَفْيًا بَاتًّا، وَأُبْدِلُهَا لَكَ بِوَصْفٍ لَائِقٍ بِكَ، وَهُوَ النِّعْمَةُ أَوِ الْقُدْرَةُ مَثَلًا أَوِ الْجُودُ.

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أ هـ

قلت (عادل السيد):

إن هذه المقولة "الأخذ بظواهر الآيات كفر" يترتب عليها أخطر الأمور على الإطلاق وهو إسقاط الشريعة كلها، بل إسقاط الحجة التي جعلها الله ببعثة المرسلين "رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل"

فإنه إذا كان الرسل يقرؤون على الناس آيات ظاهرها الكفر ثم يُبَيِّنُها الرسولُ –المكلف من قبل الله تعالى ببيان ما أنزل إليه– ويفسرها بكلام ظاهره الكفر أيضاً فأين الحجة التي تقوم على العالمين إذن؟!

فإذا كان الله يقول لرسوله {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} فيقوم الرسول ببيان ما نزل إليه بكلام ظاهره الكفر أيضاً فمعنى ذلك أن الرسول لم يقم بأداء المهمة التي كلفه الله بها، فكيف شهد الصحابة في حجة الوداع أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة؟ وكيف استشهد الرسولُ ربَّه بقوله "اللهم فاشهد" فهل شهد الله على أمر لم يحدث؟!، ثم يمر عصر الرسالة والخلافة

الراشدة وعصر التابعين والناس يقرؤون كلام الله وكلام رسوله ويفهمون منه هذه الظواهر ويعتقدونها ولا يحذرون من هذه الظواهر، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً مؤمنين بهذه الظواهر، ثم يأتي بعد ذلك هؤلاء المتكلمون ليقولوا لهذه الأجيال السابقة: لقد آمنتم بكلام ظواهره كفر وعليكم أن تتبعونا لتصحيح معتقداتكم التي توارثتموها عن رسولكم وصحابته" فهل يقول بذلك عاقل؟!

ألا تعلمون أيها المتكلمون أنكم بهذا تعطون الكفار أكبر سلاح لتقويض هذا الدين، إن كان الأمر كما تقولون أفلا يحقُّ لكل كافر بهذا الدين أن يعتذر عن الدخول فيه والإيمان بالرسول الخاتم بحجة أن هذه النصوص ظواهرها كفر، وأنهم لم يطلعوا على هذه التأويلات التي جاء بها حضرات المتكلمين، أو حينما اطلعوا عليها لم يتحققوا من كونها مراداتٍ لله تعالى من كلامه، لأنهم من الممكن أن يقولوا -ببساطة شديدة جدًا- لم يثبت أن هؤلاء المتكلمين رسلٌ من عند الله لهم حق في تفسير وتأويل ما أنزله الله على رسوله، فإن كان رسوله الذي قال في شأنه {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم} قد أخفق -والعياذ بالله- في بيان كلام الله وتكلم بكلام ظاهره الكفر فكيف يتأتَّى لكم أيها المتكلمون أن تؤولوا كلام الله وأنتم لستم رسلاً، وكيف يتأتَّى لنا تصديقكم حينما يقوم الغزالي بتأليف رسالة في قانون التأويل ثم يأتي الرازي بقانون خاص به للتأويل ثم يأتي ابن العربي بقانون ثالث خاص به للتأويل؟ فأيُّ واحد من هؤلاء أعطاه الله حق تأويل كلامه وكلام رسوله بزعم أن الإيمان بظواهر نصوص الوحي كفر؟!

وسبب هذا الزعم أمرٌ مشكل وللأسف يخفى على الكثيرين؛ فإننا نجد علماء الكلام يقومون بتقسيم العقيدة إلى ثلاثة أقسام:

(1- الإلهيات ٢-النبوات ٣-السمعيات)

فلماذا كان هذا التقسيم؟!

ألم تسألوا أنفسكم أيها القراء الكرام: لماذا كان هذا التقسيم؟!

يقول البيجوري في شرحه على جوهرة التوحيد (ص ١٠٤):

"وقد انقسمت مباحث هذا الفن ثلاثة أقسام:

إلهيات: وهي المسائل المبحوث فيها عما يتعلق بالإله.

نبوات: وهي المسائل التي يُبحث فيها عما يتعلق بالأنبياء.

سمعيات: وهي المسائل التي لا تُتلقى أحكامها إلا من السمع".

والمقصود بالسمعيات عندهم: النصوص التي جاء بها الوحى من الكتاب والسنة وهى الأمور التي تخص يوم القيامة وما يحدث فيه وضابطها عندهم: أن العقل لا يمنعها أو يحيلها (أي لا يجعلها مستحيلة) فالاعتقاد كله إذن مبنيٌّ على العقل، وبناءً على ذلك قاموا بإثبات وجود الله أولاً بعقولهم -بأدلة فيها إشكالات كثيرة تسببت في وصول كثير من أئمة علم الكلام وعلى رأسهم الإمام الأشعري إلى الشك في المعتقدات نظراً لتكافؤ الأدلة العقلية على وجود الله- وهذه أكبر كارثة يُسَبِّبُها علم الكلام كما سنذكر إن شاء الله — ثم إثبات ونفي صفات عن الله معتمدين على العقل فقط ولذلك أثبتوا لله سبع صفات فقط هي: (الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام) إضافة إلى الذات والباقي صفات سلبية، وحجَّروا على الوحي الأعلى إضافةَ أي صفة إلا بعد عرضها على عقولهم فإن وافقت معقولاتهم قبلوها وإلا رُفضَت واعتبروها تشبيهاً لله بخلقه وهذا كفر، ومن هنا نشأ القول الشنيع "إن ظواهر النصوص كفر"

وقال صاحب الجوهرة:

وكل نص أوهم التشبيها فَأوِّلْه أو فَوِّض ورُمْ تنزيها

يعني: إما أن تؤوله بعقلك أيَّ تأويل يتسق مع عقل صاحب "قانون التأويل" وليس مع سائر العقول فليست كل العقول مؤهلة لفهم كلام الله إلا عقول علماء ما يُسمى بـ "الكلام" الذين يريدون أن يَحكُمُوا ويَتَحَكَّمُوا في النصوص إضافة إلى التحكم في عقول جميع المسلمين وإنا لله وإليه راجعون، فإما التأويل وإما التفويض ومعناه إلقاء النص في غيابات الإهمال والترك وعدم المبالاة وكأنه لغو لا معنى له، فكل الآيات التي جاءت في القرآن لتصف رب العالمين وكل الأحاديث التي جاء فيها ذكر صفات رب العالمين لا يُلتَفَتُ إليها لأن ظواهرها التشبيه = يعنى ظواهرها الكفر؛ فعلى المسلمين أن يتخلصوا منها، ولما كان لفظ التخلص خطير لأنه سيؤدي إلي حذف كثير من آيات الله -التي تزول الجبال ولا تزول- فاخترعوا لفظ التفويض حتى يفروا من تهمة مخالفة السلف الذين أخذوا نصوص القرآن وآمنوا بها وصدقوها ولم يثبت عن أحد منهم أنه تأول آية من آيات الصفات إطلاقاً بل الثابت عنهم الأخذ بظواهرها والايمان به والتمسك به واعتبار المخالف له مبتدعاً.

خلاصة اعتقاد السلف في الصفات:

والمأثور عن الإمام مالك وغيره في آية الاستواء: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"

"الاستواء غير مجهول = أي أنه معلوم المعنى في لغة العرب.

والكيف غير معقول = أي أننا لا نستطيع إدراكه بعقولنا لأننا لا ندرك ذات رَبِّنا ولا نحيط به ولا بصفاته علماً، وذلك لقول الله تعالى: "ولا يحيطون به علما".

والإيمان به واجب = أي: الإيمان بالاستواء المعلوم في لغة العرب، وكذلك جميع الصفات المذكورة في القرآن والسنة الصحيحة واجب.

والسؤال عنه بدعة = أي: السؤال عن الكيف بدعة.

هذا باختصار شديد خلاصة اعتقاد السلف في الصفات المذكورة في القرآن والسنة الصحيحة.

ولذلك قال المقريزي رحمه الله:

«من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يَرِد قطُّ من طريق صحيحٍ ولا سقيمٍ عن أحد من الصحابة –رضي الله عنهم– على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم–أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف به الربُّ نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيَّه محمد صلى الله عليه وسلم، بل كلُّهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم، ولا فَرَّقَ أحدٌ منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجُود والإنعام والعِزّ والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً واحداً.

وهكذا أثبتوا –رضي الله عنهم– ما أطلقه الله سبحانه على نفسه الكريمة من الوجه واليد ونحو ذلك، مع نفي مماثلة المخلوقين.

فأثبتوا–رضى الله عنهم–بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، ولم يتعرض مع ذلك أحدٌ منهم إلى تأويل شيءٍ من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت.

ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله، ولا عَرَفَ أحدٌ منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة»([7])

وقال كذلك:

«وقد أجمع المسلمون قاطبة على جواز رواية الأحاديث الواردة في الصفات ونقلها وتبليغها من غير خلاف بينهم في ذلك، ثم أجمع أهل الحق منهم على أن هذه الأحاديث مصروفة عن احتمال مشابهة

---

[7]) «مذاهب أهل مصر وعقائدهم»: لتقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي ت/ 845هـ، طبعة: مركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر.

الخلق، لقول الله تعالى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }، ولقول الله تعالى: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، وهذه السورة يقال لها سورة الإخلاص، وقد عظَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنها، ورغَّب أمته في تلاوتها، حتى جعلها تعدل ثلث القرآن من أجل أنها شاهدة بتنزيه الله تعالى، وعدم الشَّبَهِ والمِثلِ له سبحانه، وسميت سورة الإخلاص لاشتمالها على إخلاص التوحيد لله عن أن يشوبه ميل إلى تشبيهه بالخلق، وأما الكاف التي في قوله تعالى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }، فإنها زائدة، وقد تقرر أن الكاف والمثل في كلام العرب أتيا للتشبيه، فجمعهما الله تعالى ثم نفى بهما عنه ذلك، فإذا ثبت إجماع المسلمين على جواز رواية هذه الأحاديث ونقلها، مع إجماعهم على أنها مصروفة عن التشبيه، لم يبق في تعظيم الله تعالى بذكرها إلا نفي التعطيل، لكون أعداء المرسلين سَمَّوا ربَّهم سبحانه أسماء نفوا فيها صفاته العلا، فقال قوم من الكفار: هو طبيعة، وقال آخرون منهم: هو علة، إلى غير ذلك من إلحادهم في أسمائه سبحانه، قال الله تعالى {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأحاديث المشتملة على ذكر صفات الله العلا، ونقلها عنه أصحابه البررة، ثم نقلها عنهم أئمة المسلمين حتى انتهت إلينا، وكل منهم يرويها بصفتها من غير تأويل لشيء منها، مع علمنا أنهم كانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }، ففهمنا من ذلك أن الله تعالى أراد بما نطق به رسوله صلى الله عليه وسلم من هذه الأحاديث وتناولها عنه الصحابة رضي الله عنهم وبلغوها لأمته أن يَغُصَّ بها في حلوقَ الكافرين، وأن يكون ذكرها نَكْتًا في قلب كل ضال معطل مبتدع يقفو أثر المبتدعة من أهل الطبائع وعُبَّاد العِلل، فلذلك وصف الله تعالى نفسه الكريمة بها في كتابه ووصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا بما صح عنه وثبت، فدل على أن المؤمن إذا اعتقد أن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، كان ذِكْرُه لهذه الأحاديث تمكينَ الإثباتِ، وشَجًا في حُلوقِ المعطِّلة.

وقد قال الشافعي رحمه الله: «الإثباتُ أمكَنُ»، نقله الخطابي، ولم يبلغنا عن أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم أنهم أولوا هذه الأحاديث.

والذي يمنع من تأويلها إجلال الله تعالى عن أن تضرب له الأمثال، وأنه إذا نزل القرآن بصفة من صفات الله تعالى، كقوله سبحانه {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} فإنَّ نفس تلاوة هذا يفهم منها السامع المعنى المراد به، وكذا قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} عند حكايته تعالى عن اليهود نسبتهم إياه إلى البخل

فقال تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ } فإن نفس تلاوة هذا مبينة للمعنى المقصود، وأيضا فإن تأويل هذه الأحاديث يحتاج أن يضرب لله تعالى فيها المثل نحو قولهم في قوله تعالى {الرحمن على العرش استوى}: الاستواء الاستيلاء، كقولك استوى الأمير على البلد، وأنشدوا:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق

فلزمهم تشبيه الباري تعالى ببشر، وأهلُ الإثبات نزَّهوا جلال الله عن أن يشبهوه بالأجسام حقيقة ولا مجازا، وعلموا مع ذلك أن هذا النطق يشتمل على كلمات متداولة بين الخالق وخلقه، وتحرجوا أن يقولوا مشتركة، لأن الله تعالى لا شريك له.

ولذلك: لم يتأوَّل السَّلفُ شيئا من أحاديث الصفات مع علمنا قطعاً أنها عندهم مصروفة عما يسبق إليه ظن الجهال من مشابهتها لصفات المخلوقين وتأمل تجد الله تعالى لما ذكر المخلوقات المتولدة من الذكر والأنثى في قوله سبحانه {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ} علم سبحانه ما يخطر بقلوب الخلق فقال عَزَّ مِن قائل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}».(8)

قلت (عادل السيد): فقل لي بربك هل رأيت أحدا من أئمة الهدى من العلماء الذين تفقهوا في دين الله تعالى واعتقدوا ظواهر القرآن والسنة تَعَرَّضَ لِمَا تَعَرَّضَ له علماءُ الكلام من الشك والحيرة والتردد في نهاية حياتهم؟ ومن المعلوم أن الأعمال بالخواتيم والنهايات.

قال الحافظ ابن حجر ناقلاً عن القرطبي ومُقرًّا له:

" وقد أفضى الكلام بكثير من أهله –أي علماء الكلام- إلى الشك، وببعضهم إلى الإلحاد، وببعضهم إلى التهاون في العبادات، وسَبَبُ ذلك إعراضُهم عن نصوص الشارع وتَطَلُّبُهم حقائق الأمور من غيره، وليس في قوة العقل ما يُدرك ما في نصوص الشارع من الحِكَمِ التي استأثر بها"(9)

---

[8]) المصدر السابق صـ 116 وما بعدها.

[9]) انظر: فتح الباري (٣٦٢/١٣).

قلت: وهذا مصداقاً لقول الله: {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون}، وقوله {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، لأن لعلماء الكلام حظاً من هذه الآيات كما هو معلوم؛ فقلوبهم تضيق وتصاب بالحرج الشديد حينما يسمعون آيات الصفات وأحاديثها، ولا يتصفون بما يتصف به الراسخون في العلم ممن قال الله في شأنهم {والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أُنزل اليك} فللأسف لا يفرح علماء الكلام بهذه الآيات بل لسان حالهم يقول: "خلِّصونا منها" إما بالتأويل وإما بما يُغَلِّفُونَه بعبارة "التفويض" والقصد إهمالها وعدم الالتفات اليها، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم يقول الحافظ ابن حجر:

«وقد رجع كثير من أئمتهم عن طريقهم حتى جاء عن إمام الحرمين أنه قال:

"ركبت البحر الأعظم، وغصت في كل شيء نهى عنه أهل العلم في طلب الحق فراراً من التقليد، والآن فقد رجعت واعتقدت مذهب السلف"

هذا كلامه أو معناه، وعنه أنه قال عند موته: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنه يبلغ بي ما بلغت ما تشاغلت به»، إلى أن قال القرطبي: «ولو لم يكن في الكلام إلا مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذمّ:

إحداهما: قول بعضهم: (إن أول واجب الشك)، إذ هو اللازم عن وجوب النظر أو القصد إلى النظر، وإليه أشار الإمام الجويني (إمام الحرمين) بقوله: ركبت البحر...إلخ

ثانيتهما: قول جماعة منهم (إن من لم يعرف الله بالطرق التي رتبوها، والأبحاث التي حرروها لم يصح إيمانه)، حتى لقد أُورد على بعضهم: (إن هذا يلزم منه تكفير أبيك وأسلافك وجيرانك، فقال: لا تُشَنِّع على بكثرة أهل النار)،

قال: "وقد ردَّ بعضُ من لم يقل بهما على من قال بهما بطريقٍ من الرَّدِّ النظريّ وهو خطأٌ منه، فإن القائل بالمسألتين كافر شرعاً، لجعل الشك في الله واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم بالفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيَّات ضروريٌّ»

وختم القرطبي كلامه بالاعتذار عن إطالة النَّفَسِ في هذا الموضع لما شاع بين الناس من هذه البدعة (أي علم الكلام) حتى اغترَّ بها كثير من الأغمار؛ فوجب بذل النصيحة، والله يهدي من يشاء» أ هـ

قلت: فاحمد الله أيها القارئ أن مَنَّ الله عليك بمعرفة دينه من كتابه تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فاحرص على ذلك وتمسَّك بوصية النبي صلى الله عليه وسلم ونصيحته التي مَحَّض فيها النصح للأمة في حديث العرباض بن سارية –رضى الله عنه– قال: "وعظنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– موعظة بليغة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنَّ هذه موعظة مُوَدِّعٍ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة".(10)

وبعد هذه النصيحة الجامعة للخير كلِّه أقول:

اعلم أخي القارئ أن مذهب سلف الأمة الصالح في هذا الباب هو الحقُّ الذي لا ريب فيه، لأنهم ليس لهم متبوع إلا الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم فاعتقادهم هو اعتقاده، وعلومهم ليس لها مصدر سوى الوحي المعصوم من كتاب وسنة صحيحة.

وهذا الكلام الذي أقوله يتفق عليه علماء الأمة جميعا، الموافق منهم لمذهب السلف والمخالف منهم كذلك، إلا أن المخالف يقول: «مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم».

وعلماؤنا من أهل الحديث والأثر يقولون: «بل مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم».

أما كونه أسلم فلأن مذهب السلف يقوم على أصول ثلاثة هي:

الأصل الأول: تنزيه الله عن مشابهة خلقه؛ لقول الله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» ولقوله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، ولقوله «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» .

---

[10]) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٠٧)

وهذا الأصل هو أساس التوحيد الذي يقوم عليه معرفة الله على الوجه الصحيح، فالله – تعالى – لا يشبهه شيءٌ من خلقه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بهذا الأصل عرف أن أي صفة تُنسب إلى خالق السماوات والأرض تمتلئ القلوب عند سماعها من الإجلال والتعظيم والإكبار بما يجعل القلب لا يتصور مخلوقا يشابُهه أو يماثله في هذه الصفة، لذلك نُهينا عن ضرب الأمثال الله تعالى {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}.

الأصل الثاني: الإيمان بجميع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ إيماناً مبنيًا على الأصل الأول وهو «تنزيه الله عن مشابهة خلقه»

وذلك لأنه لا يستطيع أن يصف الله أعلم بالله من الله {قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} وكذلك لا يستطيع أن يصف الله –بعد الله – أعلم بالله من رسوله الذي وصفه الله بقوله: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} فإذا جاء متكلم ما، وأراد أن يقوم بصرف اللفظ القرآني أو النبوي عن ظاهره قلنا له:

إن الذي وصف الله بهذا الوصف هو الله ورسوله ﷺ وهو سبحانه يريد أن يبين لعباده لا أن يضلهم بدليل قوله {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا} يعني: لئلا تضلوا، وهذا أمر متفق عليه؛ فإذا كان يريد أن يبين و هو أعلم بنفسه من خلقه، وكذلك ليس في كلامه عِيٌ ولا عجز عن التعبير بما أراد، وليس في كلامه نقص في البلاغة، لأن كلامه أعجز البلغاء بفصاحته وبلاغته، ووصفه سبحانه بكونه {هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ}، ويكونه أصدق قيلاً {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}، و{كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} ، وبكون كلماته تمت صدقًا وعدلاً {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، فهل يجوز لمتأدب مع الله أن يقول: إنه لا يريد به ظاهره ؟! فضلاً عن أن يقول إن ظاهر كلامه كفر؟!

تالله لا يجوز لأحد أن يقول ذلك إلا إذا قال الله عن كلامه: إني لا أريد ظاهره، وأنَّى لأحدٍ أن يأتي بهذا.

ثم نقول: إن رب العالمين سبحانه وتعالى يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يلزم منه محذور أو يلزم منه محال، أو يلزم منه ما يؤدي إلى النقص، كل ذلك يستحيل عقلًا، فإن الله لا يصف نفسه ولا يصفه رسوله إلا بوصف بالغ من الشرف والعلو والكمال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

ثم نقول –أيضا–: هناك قاعدة أصولية اتفق عليها كل من يعتد به من أهل العلم وهي: أن النبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد فما بالكم بأخطر القضايا، وهي قضية أسماء الله وصفاته؟ فلو قال القائل بقول المخالفين: إن ظاهر آيات الله التي تحدثت عن صفاته هو التشبيه المؤدي إلى الكفر، مع العلم أن النبي ﷺ لم يُؤَوِّلها لكان مؤدى هذا الكلام أن الرسول قد قام بتأخير البيان، بل بتعطيل البيان عن وقت الحاجة، لا سيما و أن الأمة التي حملت أمانة الله قبله وهم بنو إسرائيل قام اعتقادهم في الله على تشبيه الله بخلقه([11])، ولذلك أكثر القرآن الكريم من التسبيح وخاصة في السور التي تحدثت عن بني إسرائيل مثل الإسراء والحشر والجمعة وغيرها ، وقد عُلم من سنة الرسول وسيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يحذر من أفعال وأقوال واعتقادات اليهود والنصارى ، فكيف فاته التحذير من اعتقاد ظواهر النصوص إن كان اعتقاد ظواهرها يؤدى إلى عقيدة اليهود ، اللهم غَفْرًا !!.

وهذان الأصلان اللذان ذكرتهما ليس مذهبًا لزيد أو لعمرو بل هما أصلان ذكرهما الله الحكيم العليم سبحانه وتعالى حينما قال: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: اعلموا أيها الإخوة أن الإتيان بقوله (وهو السميع البصير) بعد (ليس كمثله شيء) فيه سرٌّ أعظم، ومغزى أكبر، وتعليم سماوي، لا يترك في الحق لبسًا لأن السمع والبصر صفتان هما أشد الصفات توغلاً في التشبيه، فجميع الحيوانات تسمع وتبصر، ولذا جاء بقوله: (وهو السميع البصير) بعد قوله (ليس كمثله شيء) يعني: لا تتنطع يا عبدي، وتُشَبِّه صفتي بصفة مخلوقي، وتنفي عني سمعي وبصري بدعوى أنك إن اثبَتَّ لي السمع والبصر شبهتني بالحمير والآدميين وغيرهم من الحيوانات التي تسمع وتبصر .

لا يا عبدي، أثبت لي سمعي وبصري، ولكن لاحظ في ذلك الإثبات قولي قبله متصلاً به (ليس كمثله شيء) فإثبات السمع والبصر على أساس نفي المماثلة.

فأول الآية الكريمة فيه النفي التام للتشبيه والتمثيل، و آخرها فيه الإيمان بالصفات من غير تكييف ولا تعطيل على أساس التنزيه عن التشبيه والتمثيل.(12)

---

[11]) مثل ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح 32: 22: 32) أن الرب جاء إلى يعقوب عليه السلام في صورة إنسان وبات يعقوب يصارع الرب حتى طلوع الفجر وصرعه يعقوب ورفض أن يطلقه حتى يباركه فدعا اسمه «إسرائيل»، وزيارة الرب لإبراهيم ودعوة إبراهيم الرب للغداء عنده، وغير ذلك كثير.

[12]) العذب النمير في مجالس الشنقيطي في التفسير (894/3)

الأصل الثالث: الإيمان بأن العقول المخلوقة عاجزة عن إدراك كنه ذات وصفات وأسماء وأفعال الباري، فلا تحيط علمًا بخالقها، والدليل على ذلك قوله تعالى، (ولا يحيطون به علمًا)، ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله: «الاستواء معلوم» وهذا فيه إثبات الصفات على ظواهرها التي يعرف العرب معناها، ثم قال (والكيف مجهول) لأن العقول لا تدرك كيفية اتصاف الخالق العظيم بهذه الصفات التي نَعِي معانيها ولا ندرك كنهها وكيفيتها مع الاعتقاد أن لها كيفية يعلمها ربنا سبحانه وتعالى.

ثم قال «والإيمان به واجب» يعني على الوجوه الثلاثة المذكورة إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، مع قطع الطمع عن إدراك الكيفية.

ثم قال «والسؤال عنه بدعة».

أخي القارئ: بعد أن استوعبت الأصول الثلاثة التي بني علماء السلف عقيدتهم عليها أذكر لك اعتقاد المخالف لتحمد ربك على ما وهبك من نعمة الالتزام باعتقاد السلف. حينما يسمع المخالف من معتزلي أو أشعري آية أو حديثًا فيه صفة الله تعالى كالاستواء على العرش أو الإتيان يوم القيامة أو غيرها من الصفات التي حدث فيها الخلاف، فأول شيء يتبادر إلى ذهنه ويستولى على قلبه هو أن ظاهر النص التشبيه ثم ينتقل إلى صرف اللفظ عن ظاهره فيقع في التعطيل ثم يلجأ إلى تفسير النص بما يظن أنه لا يؤدي إلى التشبيه فيقع في التحريف؛ فانظر إلى ما يفعل إبليس بهؤلاء، لقد وقعوا في ثلاثة محاذير للفرار من محذور التشبيه الذي لا يوجد إلا في أذهانهم هم:

المحذور الأول: أنهم ادعوا أن ظاهر ما وصف الله به نفسه وتمدح به لا يليق بالله، وهذا افتراء على الله وعلى كتابه وعلى نبيه، والسبب في ذلك أنهم ما قدروا الله حق قدره، ففهموا من ظواهر النصوص التشبيه وهو لا يوجد إلا في أذهانهم هم.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «لفظة رأس (الراء والهمزة والسين) هذه الكلمة أضفها إلى المال، وأضفها إلى الوادي، وأضفها إلى الجبل، قل: رأس المال، رأس الجبل، فانظر إلى ما صار من الاختلاف بين هذه المعاني بحسب هذه الإضافات، وهذا مخلوق ضعيف مسكين، فما بالك بالبون الشاسع الذي بين صفة الخالق جل وعلا وصفة المخلوق».

المحذور الثاني: أنهم لما وقعوا في المحذور الأول وهو توهم أن ظواهر النصوص التشبيه اضطروا أن ينفوا عن الله الصفات التي أثبتها لنفسه فراراً من التشبيه تنزيها لله –بزعمهم– فوقعوا في التعطيل.

المحذور الثالث: اضطرارهم إلى فهم الصفات على غير معناها العربي الظاهر، فوقعوا في التحريف، ولما وقعوا فيه وحرفوا النص لزمهم التشبيه بناء على مذهبهم، لأنهم لما قالوا: الاستواء بمعنى الاستيلاء فقد وقعوا في التشبيه الذي فروا منه، لأن «استولى» أوغل في التشبيه من الاستواء، فالمستولي على الشيء يسبق خروجه من ملكه فاضطروا إلى أن يقولوا: استيلاء منزه عن استيلاء المخلوقين؛ فبدأوا مشبهين ففروا منه إلى التعطيل ثم التحريف وانتهوا مشبهين، فنعوذ بالله من الخذلان.

قلنا: إن مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم، أما أنه أسلم فلأن الإنسان إذا اعتقد الصفات على ظواهرها ولم يُشَبِّه ربَّ العالمين بخلقه ووكل علم الكيفية إلى الله تعالى؛ فإنه سيسلم لا محالة من المساءلة.

فقد علمنا أن كل إنسان سيُسأل كما قال تعالى: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ»، فهل يتصور الإنسان لو اعتقد اعتقاد السلف أنه يأتيه من ورائه ندم؟

فإذا سُئِلَ الإنسانُ: ماذا كنتم تقولون في صفاتي التي مدحت بها نفسي، هل كنتم تنفونها وتكذبونني وتَدَّعون أني أمدح نفسي بشيء لا يليق بي؟؟ أم كنتم تُنَزِّهُونني وتثبتون لي صفاتي ولا تردُّونها عليَّ، وكنتم تعلمون أني لا أمدحُ نفسي إلا بوصفِ كمالٍ وجلالٍ، وأن صفتي لا تشابه صفة خلقي؟

فمن قام اعتقاده على الأصول السلفية الثلاثة فقد نجا وسلم، فإن الله لن يقول له:

1-لم صدقتني وصدقت رسولي فيما وصفت بها نفسي؟

2-لم نزهتني عن مماثلة خلقي؟

3-- لم قطعت الأمل عن إدراك كيفية صفاتي وادعيت أنك لا تحيط بي علما؟

بل سيثني رب العالمين على من صدقه وآمن بما جاء به رسوله ﷺ وآمن بصفات الله كما وصف نفسه ووصفه رسوله وأثبت ما أثبته الله لنفسه ونفى ما نفاه الله عن نفسه إثباتًا بلا تمثيل ونزهه تنزيها بلا تعطيل وفوض الكيفية لعلام الغيوب. ([13])

---

[13]) راجع: العذب المنير، ومنهج ودراسات لآيات الأسماء للإمام الشنقيطي، وتفسير سورة البقرة للإمام ابن العثيمين.

قلت: مما سبق يتبين لك أن اعتقاد السَّلف أسلم، أمَّا كونُ اعتقادِهم أعلم وأحكم كذلك، فلكي تقف على هذه الحقيقة العلمية العظيمة فإني أدعوك مخلصًا في نصحك أيها القارئ الكريم لمطالعة هذا الكتاب النفيس ودراسته بتأنٍ وتفَهُّمٍ بعمقٍ، فقد حوى بين طيَّاتِه خُلاصةً مُرَكَّزَةً لمذهب السَّلف في الصفات والمنافحة عنه وبيان عُلوه وارتفاعه على الفلسفات الكلامية الأرضية، وبيان صدق مقولة «مذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم»، كل ذلك بالدليل المنقول وبتحرير العقول من أسر القواعد الفلسفية البدعية المكبِّلة لها؛ إنها رسالة العلامة الشيخ/ محمد الأمين الشنقيطي «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات»، وقد مَنَّ الله عليَّ بشرحها والتعليق عليها في دورة علمية، ثم أشار علينا بعض إخواننا بتفريغها وطبعها ففعلت ذلك شاكراً لهم حسن صنيعهم، فها كم أيها الفضلاء هذا الشرح لهذه الرسالة المباركة وأسأل الله أن يتقبلها منا وأن ينفع مؤلفها وشارحها وقارئها ومن قام عليها وأعان على نشرها إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النَّصير.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه/

عادل السيد

عابدين – القاهرة

25 جمادى الأولى 1443 هـ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنا نريد أن نوضح لكم معتقد السلف، والطريق الذي هو المنجَى نحو آيات الصفات:

أولاً: اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع هذا من البدع التي يكرهها السلف.

قال الشارح:

افتتح المصنف رحمه الله هذه المحاضرة القيمة ببيان منهجِ السلف الصالح وأنه الطريقُ المُنجِي الموصِلُ لبرِّ الأمان ورضا الرحمن جل وعلا، وبدأ ببيان أمر عام وتنبيه هام في هذا الشأن فقال:

"اعلموا أن كثرة الخوض والتعمق في البحث في آيات الصفات، وكثرة الأسئلة في ذلك الموضوع هذا من البدع التي يكرهها السلف"

وهذا الكلام حقٌّ، فإنك إذا رجعت إلى الكتب التي صنفت في اعتقاد السلف –وخاصة المطوّلة منها– كـ «الإبانة الكبرى» لابن بطة العكبري، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للإمام اللالكائي، وغيرها من هذه الكتب تجد أن هؤلاء العلماء قد جمعوا قدرًا كبيرًا من الكلام في بيان معتقد السلف الصالح، وأنهم كانوا ينهون عن كثرة الخوض والتعمق في آيات الصفات، فآيات الصفات إنما تؤخذ على ظواهرها، وعلى حسب ما يفهمه العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم.

فمسائل الصفات ونحوها من الأمور الغيبية التي لا يجوز السؤال عنها بـ«كيف» ولا بـ «لِمَ»، ولذلك قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن استواء الله على عرشه: «الاستواء غير مجهول –أي معلوم من جهة اللغة–، والكيف غير معقول»، يعني لا يستطيع البشر أن يعقلوا كيفية استواء الله عز وجل؛ وذلك لأمور، منها:

أولًا: أنهم لا يعقلون كيفية ذاته سبحانه، فكيف يُكيِّفُون صفات الرب سبحانه وتعالى.

ثانيًا: لأنهم مخلوقون حادثون وعقولهم مخلوقة حادثة فكيف يحيطون علمًا بالباري سبحانه وتعالى القائل في محكم التنزيل: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، فربُّ العالمين لم يُعْلِمْنَا ما هي كيفية صفاته سبحانه وتعالى حتى نعلمها، وهو القائل: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}، فما شاء الله عز وجل أن يعلمنا أعلمنا إياه، وما لم يشأ لم نعلمه ولا يكون لنا سبيل إلى علمه، فلما كان ذلك كذلك وجب الوقوف عند حدود ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا الكيف لا ندركه ولا نعقله، ولذلك قال رحمة الله عليه: «والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»، فنؤمن بالاستواء الذى جاء في كتاب الله تعالى، ونؤمن بسائر صفات الله التي جاءت في الكتاب والسنة، أما الخوض والتعمق والسؤال عن الكيفية بالنسبة للآيات التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته فإن هذا يوقع الإنسان –والعياذ بالله– في الضلال المبين، وقد قال الله تعالى: {ونزَّلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} وقال عن الرسول صلى الله عليه وسلم: {قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين} فدلَّ ذلك على أن الزيادة على ما في القرآن —الذي هو الهدى كله والرشاد كله وهو تبيان لكل شيء– من التكلف المذموم؛ ولذا كثرت الآثار الواردة عن السلف في النهي عن التكلف والخوض المذموم خاصة في باب الصفات، لكن ينبغي أن نقيد ذلك بما كان على سبيل التكلف أما إذا كان للرد على المخالفين من أهل البدع والكلام فهذا باب من أبواب الجهاد كما فعل المصنف الشيخ الشنقيطي هنا وكما فعل ذلك من قبل الأئمة الكبار كابن تيمية رحمه الله في كتبه مثل: "درء تعارض العقل والنقل" في الردِّ على الرازي، وغيره من المصنفات.

قال المصنف رحمه الله:

اعلموا أنَّ مبحث آيات الصفات دلَّ القرآن العظيم على أنه يَترَكَّزَ على ثلاثة أسس من جاء بها كلِّها فقد وافق الصَّواب وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والسلف الصالح، ومَن أَخَلَّ بواحدٍ من تلك الأُسُسِ الثلاثةِ فقد ضلَّ، وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم.

قال الشارح:

قوله: «اعلموا أن مبحث آيات الصفات دل القرآن على أنه يرتكز على ثلاثة أسس...» إلخ:

اقتصر رحمه الله على ذكر القرآن، ولم يذكر: (السنة) مع أن السنة جاءت مفصلة للقرآن وموضحة له، وذلك لأنَّ ربَّ العالمين سبحانه يعلم أنه سيكون في الناس من يقول: لا نأخذ إلا بما جاء في كتاب الله تبارك تعالى وحسبنا كتاب الله، وبخاصة في قضايا الاعتقاد والأسماء والصفات، ولا شك أن الاقتصار على القرآن دون السنة ضلال مبين.

فكان من رحمة الله تبارك وتعالى أن جاءت تلك القضايا الاعتقادية والأسس العلمية اليقينية مستوفاة في القرآن الكريم، بحيث إنك لا تجد شيئاً منها جاء في السنة إلا وله أصل في القرآن الكريم، فأحكم القرآن الكريم هذا الباب أيَّما إحكام وأعظمه، وليس معنى ذلك أننا لا نأخذ إلا بالقرآن -معاذ الله-، وإنما كان ذلك ردًّا على هؤلاء الذين سيأتون في مستقبل الزمان ويقولون لا نأخذ في باب الاعتقاد إلا بما تواتر وبما جاء عن الله تبارك وتعالى في كتابه، ولذلك ركز الإمام الشنقيطي رحمة الله عليه على بيان ذلك هنا إقامة للحجة الرساليَّة على المخالفين في هذا الباب.

قوله: «ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلَّ»: يعنى لا يجوز لإنسان أن يأخذ ببعض هذه الأسس دون بعض، فإنك إن أخذت بها كلها كنت من أهل السنة الموافقين لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المعتقد الصحيح، وإن قصَّرت أو نقصت فقد وقعت في الضلال المبين، ولن يغنى عنك ما آمنت به أو عملت به من الأسس والأصول الأخرى شيئا، ولذلك ما جاء به رب العالمين من شريعة في القرآن الكريم لا يجوز للإنسان أن يقول: آخذ ببعض وأترك بعضا؛ فإن هذا باب من أبواب الكفر والعياذ بالله، {وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} فإذاً لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ولا نأخذ ببعض الكتاب ونترك البعض {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}، بل نحن مأمورون بأن نؤمن بجميع ما أنزله الله إلينا، عملًا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً}.

قال المصنف رحمه الله:

أحد هذه الأسس الثلاثة هو: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين.

وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]، {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: ٧٤].

قال الشارح:

أول شيء يجب عليك في هذا الشأن: أن تعتقد أن الله تبارك وتعالى منزه عن مماثلة المخلوقين، لا نقول: منزه عن مماثلة البشر، بل عن مماثلة كل خلقه، فلا يوجد إلا خالق و مخلوق، ، وصفات الخالق لا تماثل صفات المخلوقين، كما أن صفات المخلوقين لا تماثل صفات الخالق سبحانه وتعالى؛ لأن هؤلاء مخلوقون حادثون فانون كلهم من العرش إلى الفرش، من جبريل عليه السلام إلى أدنى مخلوق، فربُّ العالمين سبحانه مُنزَّهٌ عن مماثلة جميع خلقه، كما قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ، وكما قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} فلا يوجد أحد مكافئا لله، ولذلك قال تعالى: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} [البقرة: 22] والأنداد جمع ند، والند هو المماثل والنظير والشبيه، فربُّ العالمين ليس له مثيل كما أنه ليس له مكافئ ولا نظير سبحانه وتعالى.

قوله: (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) هذا نهي عن ضرب المثل لله، وذلك لأنه لا مثل له سبحانه وتعالى.

ومن هذا الباب أيضًا قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، يعني هل تعلم له مساميًا؟ يعنى مكافئا ونظيرا، وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هل تعلم للرب مثيلا أو شبيها؟

ولذلك نعى الله عز وجل على الكافرين اتخاذهم عِدْلًا لله عز وجل فقال سبحانه: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} [الأنعام: 1] يعنى يتخذون عديلا لله، فعديل لله يعنى: معادلا له سبحانه وتعالى، لأنه لو ثبت أن لله مثيلا فإنه سيكون إلهاً يُعبَدُ من دون الله سبحانه، والله عز وجل واحدٌ أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، فليس له مماثل سبحانه وتعالى.

فهذه الآيات الدالة على تنزيه الله عز وجل لابد من دراستها والتَّفَقُّه فيها فإن ذلك يورث في القلب إيمانًا راسخاً بتنزيه الله تبارك وتعالى عن كل نقص وعيب، وعن أن يكون له ندٌّ أو نظير سبحانه وتعالى.

فالأصل الأول من أصول الإيمان بالصفات عندنا: «تنزيه الله جل وعلا عن أن يُشبِهَ شيءٌ من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين»، وهذا الكلام لم نأت به من عند أنفسنا، وإنما جاء به القرآن الكريم كما دل عليه الآيات

السالف ذكرها، أما هؤلاء الذين يتهمون أهل السنة والجماعة بأنهم مجسمة وأنهم مشبهة أو ممثلة؛ فإنهم كاذبون.

فتنبه يا طالب العلم لهذا الأصل العظيم وتضلَّع منه، ولا توغلنَّ في هذا الباب إلا وقد تشبع قلبك بتنزيه الله عز وجل، فحينها تتلقى أسماء الله وصفاته الواردة في القرآن والسنة بقلب مُطَهَّرٍ من التشبيه، متشبعٍ بالتنزيه عامرٍ بالإيمان بالله تعالى وتعظيمه وإجلاله، فلن يخطر ببالك أبداً أن صفة من صفات الله جل وعلا أو أن فعلاً من أفعاله سبحانه –مما يشترك فيه الخالق والمخلوق– يكون فيه أدنى مشابهة أو مماثلة بل ولا أدنى اقتراب من المماثلة([14]).

فقد وصف الله عز وجل نفسه بالاستواء والمشيئة والإرادة والعزة والرحمة ...إلخ، ووصف بعض خلقه بذلك، وليس الاستواء كالاستواء، ولا المشيئة كالمشيئة، ولا الإرادة كالإرادة، ولا العزة كالعزة، ولا الرحمة كالرحمة، وإنما كلٌّ كما يليق به، فلا تماثل بين صفة الخالق وصفة المخلوق، ولا تماثل بين فعل الخالق وفعل المخلوق.

فهذه قاعدة عظيمة قال عنها الإمام ابن القيم رحمه الله:

«الطريقُ واضحةُ المنار، بَيِّنةُ الأعلام، مضيئةٌ للسالكين، وأوَّلها أن تحذف خصائص المخلوقين عن إضافتها إلى صفات رب العالمين فإن هذه العقدة هي أصل بلاء الناس، فمن حلها فما بعدها أيسر منها، ومن هلك بها فما بعدها أشد منها، وهل نفى أحد ما نفى من صفات الربِّ ونعوت جلاله إلا لسبق نظره الضعيف إليها واحتجابه بها عن أصل الصفة وتجردها عن خصائص المحدث؟؛ فإن الصفة يلزمها لوازم باختلاف محلها فيظن القاصر إذا رأى ذلك اللازم في المحل المحدَث أنه لازم لتلك الصفة مطلقاً فهو يفر من إثباتها للخالق سبحانه، حيث لم يتجرد في ظنه عن ذلك اللازم، وهذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبة والرضى والغضب والكراهة والمقت والبغض، وردها كلها إلى الإرادة، فإنه فهم فرحاً مستلزماً لخصائص المخلوق من انبساط دم القلب وحصول ما ينفعه، وكذلك فهم غضباً هو غليان دم القلب طلباً للانتقام، وكذلك فهم

([14]) وراجع فصلًا نفيسًا عقده الإمام ابن القيم في «الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة» (1216/4) وما بعدها –في بيان أصل عظيم من أصول التجهم والتعطيل وهو عدم التمييز بين القدر الفارق والقدر المشترك، وكيف أن نفي القدر المشترك يؤدي إلى التعطيل، وأن نفي القدر الفارق –أو المميز– يؤدي إلى التمثيل، فراجع كلامه رحمه الله وعض عليه بالنواجذ واجعله نصب عينيك.

محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين فإن ذلك هو السابق إلى فهمه، وهو المشهود في علمه الذى لم تصل معرفته إلى سواه ولم يحط علمه بغيره.

ولما كان ذلك هو السابق إلى فهمه لم يجد بُدًّا من نفيه عن الخالق، والصفة لم تتجرد فى عقله عن هذا اللازم فلم يجد بُدًّا من نفيها»([15]).

قال المصنف رحمه الله:

الثاني من هذه الأسس([16]): هو الإيمانُ بما وَصَفَ اللهُ به نفسَه؛ لأنَّه لا يَصفُ اللهَ أعلمُ باللهِ مِن اللهِ {أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ} [البقرة: ١٤٠]، وما وَصفَه به رسولُه صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّه لا يَصِفُ اللهَ بَعدَ اللهِ أعلمُ باللهِ مِن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في حقِّه: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: ٣،٤]، فيلزم على كلِّ مُكلَّفٍ أن يؤمن بما وصف الله به نفسَه، أو وصفَه به رسولُه صلى الله عليه وسلم، ويُنَزِّهُ ربَّه جل وعلا عن أن تُشبِهَ صفتُه صفةَ الخلق. وحيثُ أَخَلَّ بأحد هذين الأصلين وقع في هُوَّةِ ضلالٍ؛ لأنَّ من تَنَطَّعَ بين يَدي ربِّ السَّماوات والأرض، وتجرأ هذه الجرأة العظيمة، ونفى عن ربِّه وصفاً أثبتَه ربُّه لنفسِه، فهذا مجنونٌ.

قال الشارح:

هذا الأساس الثاني الذي يرتكز عليه البحث في آيات صفات الله جل وعلا، وهو الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جرى المصنف رحمه الله في هذا الترتيب على طريقة القرآن الكريم في تقديم النفي على الإثبات، كما قال تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، فبدأ بالتنزيه أولًا في قوله: {ليس كمثله شيء}، ثم ثنى بالإثبات بعد أن أصبح القلب مطهراً من أن يخطر به إمكان مشابهة الله عز وجل لأحد من خلقه فقال: {وهو السميع البصير}.

قال رحمه الله: «لأنه لا يصف اللهَ أعلمُ بالله من الله {قل أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ} ...»، فلذلك لو جاء وصفٌ لله في القرآن أو ثبت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فلا يجوز لأحد أن يرده بحجة أن فيه مشابهة أو مماثلة لأحد من خلقه، أو أنه يحتمل التجسيم، وما شاكل ذلك؛ لأنك لو قلت ذلك؛ قيل لك: {ءأنتم

([15]) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» لابن القيم (514–515) ط. عالم الفوائد.

([16]) والأساس الثالث هو: قطع الطمع عن إدراك الكيفية، وسيأتي فيما بعد.

أعلم أم الله}، أفأنت أيها المتكلم أو المتفلسف أعلم بالله من الله حتى تستدرك على رب العالمين سبحانه وتقول لربك جل جلاله: كان ينبغي أن تقول يا ربنا: الرحمن على العرش استولى؛ لأن {استوى} فيها مشابهة لخلقك؟! إن هذا لهو الكفر بعينه، أعني الاستدراك على الله تعالى، فلا يستدرك العبد المخلوق المحدث على الله رب العالمين سبحانه، ولا ينبغي لمخلوق أن يتحدث عن الله عز وجل وعن ذاته وعن أسمائه وصفاته كأنه نِدٌّ لله تبارك وتعالى يعلم ما لا يعلم رب العالمين سبحانه عن نفسه -تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا-.

قوله: «وما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم» معطوف على «ما وصف الله به نفسه»؛ لأن البعض قد يقول: نكتفي بهذا ولا نأخذ إلا بما جاء عن الله في القرآن، فنقول: وهل جاء النبي صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أحكام الوضوء والبيع والشراء، والمناكحات والجنايات، ولا يعلمهم أسماء الله وصفاته، وهي أعظم الأمور والتي لأجلها خلق الله الخلق وأرسل الرسل؟، قال سبحانه: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

فأول مقاصد بعثة الرسل وأجلها تعريف الناس بخالقهم سبحانه وتعالى، يُعَرِّفُونهم أولا بذات الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم بأمره الشرعي سبحانه وتعالى، وما يحبه الله وما يبغضه، وما يأمر به، وما ينهى عنه، لكن الأساس والأصل الأول هو التوحيد أي إفراده سبحانه بما يختص به من ربوبية وألوهية وأسماء وصفات.

وعليه؛ فإذا وصف الرسولُ ربَّه بشيءٍ؛ لا يقال له: لمَ؟، ولا يُستدرَك على الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك؛ لأن الاستدراك على الرسول استدراك على مُرسِلِه سبحانه.

ثم ذكر رحمه الله علة ذلك فقال:**"لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في حقه: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}"**.

إذاً فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الرجل الوحيد الذي ضمنت له العصمة في أرض الله من الوقوع في الهوى؛ لأنه لا يتكلم إلا بالوحى وخاصة في أمور الاعتقاد؛ فكان لزامًا على كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم دون انتقاءٍ أو تَشَهّي، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

فدونك أيها السُّنِّيُّ ذينك الأصلين عَضَّ عليهما بناجذيك، وإياك أن تُخِلَّ بهما أو بأحدهما، فتقول: آخذ أصلًا وأترك آخر، وإلا وقعت في هُوَّةِ الضلال المبين والعياذ بالله.

ولذلك اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، وَمَا دلَّت عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْهَا مِنَ الْأَفْعَالِ.

فنثبت ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله صلى الله عليه سلم من غير تعطيل ولا تحريف ومن غير تكييف ولا تمثيل (تشبيه)، وننفي عن الله ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم، لا نتجاوز القرآن والحديث.

قال رحمه الله: «لأن من تنطع بين يدي رب السماوات والأرض، وتجرأ هذه الجرأة العظيمة، ونفى عن ربه وصفاً أثبته ربه لنفسه، فهذا مجنون»:

بالطبع هذا إنسان غير عاقل، فالعاقل لا يستدرك على رب العالمين سبحانه، فإن العاقل يعرف قدره وأنه مخلوق حادث وأن علمه ضئيل محدود، ويعرف قدر ربه وعظمته وسعة علمه سبحانه.

فاعرف أيها العبد قدر ربك {الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك}، وأن هذا الكلام الذي بين يديك هو كلامه سبحانه، فهو الذي أخبر عن نفسه وعن صفاته، أفَيَليقُ بك بعدُ أيها العبد المحدود في علمك وتفكيرك، وفي قدرتك وإرادتك أن تستدرك على ربك وخالقك، وتقول: لا يا ربِّ أنت غير موصوف بهذه الصفة، أو أن هذا الوصف لا يليق بك، وكان ينبغي عليك أن تقول كذا أو أن تصف نفسك بكذا؟

لا شك أن هذا غاية الجهل والجنون، فهذا المعطل الذي عطَّل اللهَ عن صفاتِه وحرَّف كلامَه عن مواضعه لو أن الله وَصَفَه بوصفٍ ونفاه هو عن نفسه لكان هذا ضربًا من الجهل والضلال والتكذيب، فكيف يُجوِّز لنفسه أن ينفي عن الله ما وصفَ الله به نفسه سبحانه أو وصفه به رسوله، وصدق الله إذ يقول: {قل أأنتم أعلم أم الله}.

وثمة أمر آخر وهو أن ذاك المتنطع الذي نفى عن الله عز وجل ما وصف به نفسه لا يعرف شيئًا عن كيفية صفات الله سبحانه وتعالى، فكيف يتنطع ويتجرأ فينفى عن الله ما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ سبل العلم بكيفية الشيء ثلاثة لا رابع لها:

1. رؤيته.
2. رؤية نظيره ومثيله؛ فتقيس حينئذ الشاهد على الغائب.
3. الخبر الصادق عنه.

وهذه كلها منتفية في باب صفات الله تعالى:

– فأما الرؤية في الدنيا فغير ممكنة وقد طلبها موسى عليه السلام فقال: {رب أرني أنظر إليك}، قال الله: {لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا}، فالله عز وجل لما تجلى للجبل وهو مخلوق عظيم من مخلوقاته عز وجل اندكَّ وانساخ؛ فما بالك إذن بالإنسان الذي خلقه الله ضعيفًا، ولذلك لما رأى موسى عليه السَّلام ما حدث للجبل خرَّ صعقًا.

– وأما رؤية نظيره فمحال في حق الله لأنه سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فلا مثيل ولا نظير ولا شبيه ولا ند له.

– وأما الخبر الصادق عنه فهو منتف كذلك إذ لم يخبرنا ربنا بكيفية صفاته في كتابه أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «التَّدمُرِيَّة»:

"إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف وهو فرع له وتابع له فكيف تطالبني بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته وإذا كنت تُقِرُّ بأن له ذاتا حقيقةً، ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء فسمعه وبصره وكلامه ونزله واستواؤه: ثابت في نفس الأمر وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع الخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم"([17]).

([17]) «التدمرية» لابن تيمية (44)

وقد دلَّت النُّصُوصُ الْقُرْآنِيَّةُ والنبوية عَلَى أَنَّ صِفَاتِ الْبَارِي –سبحانه– قِسْمَانِ:([18])

1- **صِفَاتٌ ذاتيَّة:** لَا تنفكُّ عَنْهَا الذَّاتُ، بَلْ هِيَ لَازِمَةٌ لَهَا أَزَلًا وَأَبَدًا، وَلَا تتعلَّق بِهَا مَشِيئَتُهُ تَعَالَى وَقُدْرَتُهُ، وَذَلِكَ كَصِفَاتِ: الْحَيَاةِ، وَالْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْقُوَّةِ، والعزَّة، وَالْمُلْكِ، وَالْعَظَمَةِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْمَجْدِ، وَالْجَلَالِ، والوجه، واليدين، والقدم...إلخ.

2- **صِفَاتٌ فعليَّة:** تَتَعَلَّقُ بِهَا مَشِيئَة اللهُ وَقُدْرَتُهُ كُلَّ وَقْتٍ وَآنٍ، وَتَحْدُثُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ آحَادُ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنَ الْأَفْعَالِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ لَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بِهَا، بِمَعْنَى أَنَّ نَوْعَهَا قَدِيمٌ، وَأَفْرَادَهَا حَادِثَةٌ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ، وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَقُولُ ويتكلَّم وَيَخْلُقُ ويدبِّر الْأُمُورَ، وَأَفْعَالُهُ تَقَعُ شَيْئًا فَشَيْئًا، تَبَعًا لِحِكْمَتِهِ وَإِرَادَتِهِ.

فَعَلَى الْمُؤْمِنِ الإيمان بكل ما نَسَبَه اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ المتعلِّقة بِذَاتِهِ؛ كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَالْمَجِيءِ، وَالْإِتْيَانِ، وَالنُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَالضَّحِكِ، وَالرِّضَى، وَالْغَضَبِ، وَالْكَرَاهِيَةِ، وَالْمَحَبَّةِ. والمتعلِّقة بِخَلْقِهِ؛ كَالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالْإِحْيَاءِ، وَالْإِمَاتَةِ، وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ الْمُخْتَلِفَةِ.

- فعقيدة السلف الصالح إِثْبَاتُ جَمِيعِ مَا وَرَدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الصِّفَاتِ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الذَّاتِيَّةِ مِنْهَا؛ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْحَيَاةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَنَحْوِهَا، وَالْفِعْلِيَّةِ؛ كَالرِّضَا وَالْمَحَبَّةِ وَالْغَضَبِ وَالْكَرَاهَةِ، وَكَذَلِكَ لَا فَرْقَ بَيْنَ إِثْبَاتِ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ وَنَحْوِهِمَا، وَبَيْنَ الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ وَالنُّزُولِ، فَكُلُّهَا مِمَّا اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى إِثْبَاتِهِ بِلَا تَأْوِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَبِلَا تَشْبِيهٍ وَتَمْثِيلٍ.

قال المصنف رحمه الله:

فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال، فكيف يليق بمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السماوات والأرض، ويقول: (هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا وكذا وكذا، فأنا أؤوله وأنفيه وآتي ببدله من تلقاء نفسي، من غير استناد إلى كتاب وسنة)، سبحانك هذا بهتان عظيم!

---

[18]) تنبيه هام: تقسيم الصفات عند السلف الصالح يختلف تماما عن تقسيمها عند المتكلمين وتعريفاتها كذلك مختلفة ومتباينة بين السلف وبين المتكلمين، فلا يختلطن الأمر عليك أخي الكريم عند كلام المصنف عن عقيدة الأشاعرة والمتكلمين في ذلك.

قال الشارح:

اعلم أيها القارئ الكريم أن: **كلُّ صفة وصف الله بها نفسه فهي صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فللَّه تعالى صفات الكمال، وله الكمال في هذه الصفات، وهذه قاعدة مضطردة**([19]).

فنثبتُ تفرُّد الربِّ جلَّ شَأْنُهُ بِكُلِّ صِفَةِ كَمَالٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ مثيلٌ فِي شيءٍ مِنْهَا، وَمَا وَرَدَ فِي الْآيَاتِ مِنْ إِثْبَاتِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى لَهُ وَحْدَهُ، وَنَفْيِ النِّدِّ وَالْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالسَّمِيِّ وَالشَّرِيكِ عَنْهُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ كَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ منزَّه عَنْ كُلِّ نقصٍ وعيبٍ وآفةٍ.

فالله عز وجل له الكمال المطلق في ذاته وفي أسمائه وصفاته، فليس ثَمَّ نقصٌ في صفة من صفاته، بل له غاية الكمال في كل ما وصف به نفسه سبحانه، فمثلًا: صفة العلم وهي من الصفات الثبوتية التي وصف الله عز وجل بها نفسه، وكذلك فإن نبيه صلى الله عليه وسلم موصوف بالعلم، والعلماء أيضًا موصوفون بصفة العلم، لكن الله سبحانه له الكمال في هذه الصفة، فعلمه سبحانه واسع محيط بكل شيء، لم يسبقه جهل ولا يشوبه نسيان، قال سبحانه: {ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما}، وقال: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين}، وقال: {يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون إنه عليم بذات الصدور}، وقال: {وما كان ربك نسيا}، وقال: {علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى}، أما علم المخلوقين فإنه علم ضئيل محدود مسبوق بجهل ومشوب بالنسيان، وكذلك فإن علم الله تعالى يشمل الماضي بكل جزئياته والحاضر بكل تفاصيله والمستقبل كذلك، بل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، قال الله تعالى: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}، ولا يبلغ علم المخلوق شيئا من ذلك.

فلا يليق بمن هذه صفته أن يتقدم بين يدي ربه سبحانه، فيستدرك عليه ويقول: يارب هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك!

معاذ الله {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا} أن يأتي أحد الناس –من الجُهَّال– ليقول لرب العالمين: ما كان ينبغي لك أن تذكر هذا الوصف عن نفسك؛ لأن هذا الوصف يتبادر إلى الأذهان أنه صفة نقص لا صفة كمال.

([19]) انظر: «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» لابن عثيمين (19)

ثم يقوم بجناية أخرى وهي تحريف نصوص الصفات –وهو ما يسمونه تأويلًا– زاعمًا بذلك حماية جناب الرب سبحانه عن أن يوصف بما ظاهره النقص أو مشابهة صفات المخلوقين.

والسؤال الذي لا بد من طرحه: من الذي وصفها بالنقص ابتداءً؟! أليس هم أهل التعطيل والتحريف أنفسهم الذين يدَّعون حماية جناب الرب سبحانه وتنزيهه عما لا يليق، حتى سوَّغوا لأنفسهم التقوُّلَ على الله بغير علم، وتبديل كلامه سبحانه من تلقاء أنفسهم من غير استناد على حجة من كتاب أو سنة، فواعجبًا أن يصدر هذا من رجل يَدَّعي أنه يؤمن بأن هذا الكلام الذي يقرؤه هو كلام الرب سبحانه وتعالى. فإن هذا من أعظم البهت في أسماء الله عز وجل وصفاته.

وهذا من جناية كتب الفلسفة الوثنية على أفكار كثير ممن يَدَّعي العلم بكتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فيتفوه بمثل هذا الكلام الشنيع تنطعًا وجرأة على الله عز وجل لكي يرد على الله سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قال المصنف رحمه الله:

ومَن ظنَّ أن صفة خالق السماوات والأرض تُشبِهُ شيئاً من صفات الخلق، فهذا مجنون جاهل ملحد([20]) ضال، ومن آمن بصفات ربه جل وعلا، منزهاً ربه عن مشابهة صفات الخلق، فهو مؤمنٌ مُنَزِّهٌ سالمٌ من وَرطَةِ التشبيه والتعطيل.

---

20) معنى الإلحاد: الإلحاد لغة: من مادة (ل ح د) وهو الميل عن القصد والاستقامة، ومنه: اللَّحد وَهُوَ الشَّقُّ فِي جَانِبِ الْقَبْرِ الَّذِي قَدْ مَالَ عَنِ الْوَسَطِ، وتعريفه شرعا هو: العدول عن الحق والانحراف عنه، فالْمُلْحِد فِي الدِّينِ: الْمَائِلُ عَنِ الْحَقِّ، الْمُدْخِل فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

قال العثيمين: "الإلحاد هو العدول عما يجب اعتقاده أو عمله" (انظر: فتح رب البرية بتلخيص الحموية صـ 10)

قال الله تعالى {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم}، أي انحراف بظلم، ويقال: ألحد في الحرم أي: ترك القصد فيما أمر الله به ومال إلى الظلم، ويقال: ألحد في الحرم: بمعنى أشرك أيضا لأن الشرك قمة الانحراف والميل عن الصراط المستقيم، وكذلك يطلق الإلحاد على إنكار وجود الله والشك فيه، وهذا الأخير هو المعنى المشهور المراد بهذا المصطلح في زماننا هذا، ويقال عن الواحد منهم ملحد والجمع ملاحدة.

وقد ذكر الله في القرآن الإلحاد في أمرين:

الأول: الإلحاد في الأسماء والصفات: فقال {ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في آياته ...}

وقد قال ابن القيم رحمه الله في (مختصر الصواعق المرسلة 2/ 110) موضحا أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

"فالإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: أن يسمى الأصنام بها، كتسميتهم اللات من الإله والعزى من العزيز وتسميتهم الصنم إلها، وهذا إلحاد حقيقة فإنهم عدلوا بأسمائه إلى أوثانهم وآلهتهم الباطلة

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أبا وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع ونحو ذلك

قال الشارح:

فقسَّم المصنِّف مُثبتِي الصفات إلى صنفين:

الأول –وهو من توهَّم التشبيه– وصفه بعدة صفات: بالجنون، والجهل، وبالإلحاد، والضلال.

وأما الآخر: وهو الذي تحقق بالأصلين وهما التنزيه والإثبات فذاك المؤمن بما جاء عن الله وبما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم في باب الصفات، السالم من ورطة التشبيه والتعطيل.

فعندنا هنا ورطتان: الأولى: ورطة التشبيه لمن لم يؤمن بقوله: {ليس كمثله شيء} حيث وقع في التمثيل والتشبيه

والثانية: ورطة التعطيل، لمن لم يؤمن بقوله: {وهو السميع البصير} حيث عطل الله عز وجل عن صفاته.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدس من النقائص كقول أخبث اليهود إنه فقير وقولهم إنه استراح بعد أن خلق خلقه، وقولهم (يد الله مغلولة) وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلا وشرعا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين؛ فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها فكلاهما ملحد في أسمائه، ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علوا كبيرا.

وقال الإمام ابن القيم في مدارج السالكين (1/ 54): (وَحَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ فِيهَا الْعُدُولُ بِهَا عَنِ الصَّوَابِ فِيهَا، وَإِدْخَالُ مَا لَيْسَ مِنْ مَعَانِيهَا فِيهَا، وَإِخْرَاجُ حَقَائِقِ مَعَانِيهَا عَنْهَا، هَذَا حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، فَفَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْإِلْحَادَ بِالْكَذِبِ، أَوْ هُوَ غَايَةُ الْمُلْحِدِ فِي أَسْمَائِهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ فِي مَعَانِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَخَرَجَ بِهَا عَنْ حَقَائِقِهَا، أَوْ بَعْضِهَا، فَقَدْ عَدَلَ بِهَا عَنِ الصَّوَابِ وَالْحَقِّ، وَهُوَ حَقِيقَةُ الْإِلْحَادِ؛ فَالْإِلْحَادُ إِمَّا بِجَحْدِهَا وَإِنْكَارِهَا، وَإِمَّا بِجَحْدِ مَعَانِيهَا وَتَعْطِيلِهَا، وَإِمَّا بِتَحْرِيفِهَا عَنِ الصَّوَابِ، وَإِخْرَاجِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ، وَإِمَّا بِجَعْلِهَا أَسْمَاءً لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَصْنُوعَاتِ، كَإِلْحَادِ أَهْلِ الِاتِّحَادِ)اهـ.

والثاني من أنواع الإلحاد: الإلحاد في آيات الله تعالى كما قال تعالى {إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا}، والإلحاد في آياته يشمل:

1 – الإلحاد في الآيات الكونية (التي هي المخلوقات)، وهو: هو إنكار انفراد الله بما بأن ينسبها إلى غير الله استقلالاً أو مشاركة أو إعانة.

2 – الإلحاد في الآيات الشرعية (التي هي الوحي المنزل على الأنبياء)، وهو ثلاثة أنواع:

إما بتكذيبها وجحودها، وإما بتحريفها لفظا أو معنى، وإما بمخالفتها أي عصيان أحكامها والمخالفة تكون إما بفعل المحظور أو ترك المأمور.

فهو على درجات: فالإلحاد قد يكون بالتكذيب والجحود فيكون كفرا كما في آية فصلت أو بالتحريف فيكون كفرا أو ما دونه، فهو انحراف وميل في الاعتقاد، أو يكون بالمخالفة والعصيان فهو انحراف وميل في العمل كما شملته آية الحج فيدخل في الآية المعاصي التي هي دون الكفر؛ ولذلك كان السَّلف يتخوَّفون من ارتكاب الصغائر في الحرم بله الكبائر.

فإذا آمنت بقوله: {ليس كمثله شيء}، ثم آمنت بقوله: {وهو السميع البصير}، وبسائر ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فقد أتيت بالأساسين اللذين طلب منك أن تؤمن بهما وهما التنزيه والإثبات الذي دل عليه قوله: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

قال المصنف رحمه الله:

وهذا التحقيق هو مضمون {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، هذه الآية فيها تعليمٌ عظيم يحلُّ جميع الإشكالات ويُجِيبُ عن جميع الأسئلة حول الموضوع؛ ذلك لأن الله قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} بعد قوله : {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمعٌ وبصرٌ يتصفُ بهما جميع الحيوانات، فكأن الله يشير للخلق بأن يقول: لا تنفوا عني صفة سمعي وبصري، بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر، وأن ذلك تشبيه، لا وكلا، بل أثبِتوا لي صفة سمعي وصفة بصري على أساس {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله، والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شك فيه.

إلا أن صفة ربِّ السماوات والأرض أعلى وأكمل من أن تُشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمَن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله، سبحانك هذا بهتان عظيم! ومن ظنَّ أن صفة ربه تشبه شيئاً من صفات الخلق، فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له، يدخل في قوله: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء ٩٧، ٩٨]، فمَن يُسَوِّي ربَّ العالمين بغيره فهو مجنون([21]).

قال الشارح:

هذه الآية الفذَّة وهي قوله: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} أصل عظيم في باب الأسماء والصفات حيث جمعت بين الإثبات والتنزيه، فدلت على أن الله عز وجل متصف بالصفات الثبوتية وبالصفات المنفية أيضًا.

---

[21] هكذا في النسخ المطبوعة كلها: (فهو مجنون) وهي غير واضحة في التسجيل، ولعل الأقرب أن الجملة هكذا: (فمَن يُسَوِّي ربَّ العالمين بخلقه ففي ضلال مبين) لتتناسب مع الآية المذكورة.

قال الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله تعالى: «هَذِهِ الْآيَةُ الْمُحْكَمَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ دُسْتُورُ([22]) أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، فَنَفَى عَنْ نَفْسِهِ الْمِثْلَ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ سَمْعًا وَبَصَرًا، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَذْهَبَ الْحَقَّ لَيْسَ هُوَ نَفْيَ الصِّفَاتِ مُطْلَقًا؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ المعطِّلة، وَلَا إِثْبَاتُهَا مُطْلَقًا؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ الممثِّلة؛ بَلْ إِثْبَاتُهَا بِلَا تَمْثِيلٍ»([23]).

ومن أوجه إعجاز هذه الآية أيضًا: أنها ردَّت على جميع الإشكالات في باب الأسماء والصفات، والتي بسببها ضل من ضل في هذا الباب، فإن من لم يؤمن بشقها الأول وقع في التشبيه والتمثيل، ومن لم يؤمن بشقها الثاني وقع في التحريف والتعطيل.

ثم بين المصنف رحمه الله وجه ذلك فقال: «ذلك لأن الله قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} بعد قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ...» إلخ.

وإنما اختار الله عز وجل هذين الاسمين {السميع البصير} دون غيرهما من سائر الأسماء لأن صفة السمع وصفة البصر ليستا لخواص الخلق بل يشترك فيهما جميع الحيوانات، إذ كلُّ المخلوقات الحادثة من الإنس والجن والبهائم وسائر الحيوان تسمع وتبصر، بخلاف صفة العلم مثلًا، فلو قال: «العليم»، ربما قال البعض: إنها صفة للمخلوقات الراقية فقط مثل الملائكة ومثل الإنس، لكنَّ السمع والبصر يشترك فيهما سائر الحيوان حتى البهائم، فذكر صفتين مشتركتين بين سائر المخلوقات حتى يبين لك أن سمعه سبحانه ليس كسمع هذه المخلوقات، وأن بصره ليس كبصر هذه المخلوقات.

قال رحمه الله: «فكأن الله يشير للخلق بأن يقول: لا تنفوا عني صفة سمعي وبصري، بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر...».

قوله: الحوادث: يعني المخلوقات، سميت بذلك لأنها حادثة بعد أن لم تكن، لكن رب العالمين سبحانه ليس بحادث، فهو الذي أحدث المحدثات وخلق المخلوقات.

ثم أشار رحمه الله إلى قاعدة القدر المشترك والقدر الفارق، فقال: «**فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله. والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم، وكل هذا حق ثابت لا شك فيه**».

([22]) كلمة فارسية بمعنى قانون، أو أساس، قال الصغاني: هو اسم النسخة المعمولة للجماعات. «تاج العروس» (292/11).

([23]) «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ محمد خليل هراس (69).

وهذا كلام مهم، فإن العقول تدرك المعاني الكلية، فحينما أقول لك: صفة «السمع» فإن العقل يدرك معنى السمع، ويدرك معنى البصر، ويدرك معنى الحياة، ويدرك معنى الاستواء، ويدرك معنى المجيء، ويدرك معنى كل صفة من الصفات، لكنه إدراك ذهني مجرد عن الإضافة، فإذا خرج إلى الوجود كان كلٌّ كما يليق به، فتُعطَى الصفة حينئذ خصائص من اتصف بها، فإذا قلت: سمع الله، وسمع المخلوق، أدرك العقل أن سمع المخلوق غير سمع الخالق سبحانه وتعالى، فلِسَمعِ اللهِ قَدرٌ مُمَيَّزٌ وفارقٌ يختصُّ به، ولِسَمعِ الإنسانِ قَدرٌ مُمَيَّزٌ يليق به، وهكذا القول في بقية الصفات والأفعال.

فالحاصل أنه أتى هنا باسمين لهما شيوع في سائر المخلوقات ليدلل على هذه القاعدة العظيمة في النفي والإثبات، وأن الاشتراك في أصل الصفة لا يستلزم التشبيه والمماثلة؛ فإن صفة رب السماوات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه شيئاً من صفات المخلوقين.

ثم قال رحمه الله: «**فمن نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه، فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله**»: وهذا لازم خطير ينبغي لأهل التأويل والتعطيل المنكرين لصفة من صفات رب العالمين أن يتنبهوا له، وأن يعلموا أنهم سيُجابَهون يوم القيامة بهذا بين يدي الله تبارك وتعالى، ولن يغنى عنهم من الله أحد شيئًا، لن تغنى عنهم مؤسسة من المؤسسات العريقة، لن تغنى عنهم جامعة من الجامعات، لن تغنى عنهم وظيفة من الوظائف، لن تغنى عنهم أي قوة في أرض الله لأنه لا توجد آنذاك قوة أصلًا، {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار}. فضع هذا في اعتبارك؛ ماذا تفعل بين يدي الله إن قيل لك: لم نفيت عن الله عز وجل صفة أثبتها الله لنفسه؟ ولا شك أن في هذا مضادة لله سبحانه وافتئات عليه، ولذا قال سبحانه ناعيًا على أمثال هؤلاء: {قل ءأنتم أعلم أم الله}، كما أنهم داخلون أيضًا تحت قوله سبحانه عن المجرمين: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، فهؤلاء الذين سووا هذه المخلوقات الحادثة برب العالمين وقعوا في ضلال مبين يتبرءون منه يوم القيامة والعياذ بالله.

قوله: «**فمن يُسوّي ربَّ العالمين بغيره فهو مجنون**»: الشيخ هنا يتكلم عن الضلال والإلحاد ولكنه مُصِرٌّ على الوصف بالجنون لأنها حقيقة، طبعاً هو ليس مجنونًا يعنى فاقد العقل، ولكنه لم يُعمل عقله، فهؤلاء الذين قالوا عن أنفسهم (إننا عقلاء وحكماء وأهل علم وكلام وأهل دراية)؛ هؤلاء في حقيقة الأمر لم يستخدموا العقول، وإلا فإن كل إنسان لو سأل نفسه: (كيف تتجنى على آيات الله تبارك وتعالى وتنفي شيئاً وصف الله عز وجل به نفسه أو وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام؟) لما تجاسر على هذا أبدًا.

تذييل مهم:

وهذا الذي ذكره المصنف رحمه الله هو فهم السلف الصالح لهذه النصوص، وهذا الفهم هو العاصم من الوقوع في البدع الاعتقادية؛ فقد قال الله تعالى {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}

والمقصود بقوله {سبيل المؤمنين} هو سبيل الذين رضي الله عنهم ورسوله وتوفي الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض والذين اتبعوهم بإحسان.

فمن ترك اعتقادهم وقع في الضلال المبين وخالف سبيل المؤمنين وأصبح من الزائغين الذين قال الله فيهم {فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}؛ ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن السيدة عائشة بعد تلاوته لهذه الآية "فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم".

وهؤلاء الزائغون متعددو المشارب وتجمعهم مخالفة سبيل المؤمنين وعدم اتباعهم للسلف الصالح، قال الرسول صلى الله عليه وسلم "وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة" قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي" وفي رواية " من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي" (24).

وقد قال الله {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} فإذا كان الله قد رضي عنهم فإن هذه أعظم شهادة لهم ولمعتقدهم وما كانوا عليه من العلميات والعمليات؛ ولذلك صاروا أئمة هدى لمن يأتي بعدهم، وهذه الإمامة لن تكون في باب دون باب، بل باب الاعتقاد على رأسها؛ فمستحيل أن يحكم الله بهذا الحكم لأناس لا يرضى عن عقيدتهم بل هي العقيدة المرضية –عقيدة السلف الصالح– رضي الله عنهم.

قال المصنف رحمه الله:

ثم اعلموا أن المتكلمين الذين خاضوا في الكلام، وجاءوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية ركبوها في أقيسة منطقية، قسَّموا صفات الله جل وعلا إلى ستة أقسام، قالوا: هناك صفة نفسية، وصفة معنى، وصفة

---

[24]) راجع السلسلة الصحيحة للألباني رحمه الله (204/ 1492)

معنوية، وصفة فعلية، وصفة سلبية، وصفة جامعة، أما الصفات الإضافية فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج، وسَبَّبُوا بذلك إشكالاتٍ عظيمةً وضلالاً مبيناً.

قال الشارح:

ذكر الشيخ هنا أن هؤلاء المتكلمين الذين خاضوا في الكلام جاءوا بأدلة سموها هم «أدلة عقلية»؛ وليس كل من ادعى وصفًا يُسلَّم له، وهنا تلحظ السر في إصرار المصنف رحمه الله على وصمهم بالمجانين، فأنى لمجنون أن يأتي بدليل عقلي صريح؟!، إذن هذا وصف مقصود من المصنف لا كما قال بعض محققي الرسالة معلقًا على هذا اللفظ: «إن المناسب أن يقال: ضال أو جاهل مثلًا»(25)، يعني لا يقال: مجنون، أو أن هذا جنون.

وهل هناك جنون فوق أن يتجرأ العبد على القول على الله بلا علم، وعلى الاستدراك عليه سبحانه، وأنه كان ينبغي عليك أن تصف نفسك بكذا وكذا –تعالى الله وتقدس–، حتى إن أحد مجرميهم وهو عمرو بن عبيد أحد رءوس الإلحاد في أسماء الله وصفاته قال في قوله سبحانه: {الرحمن على العرش استوى}: وددت أني حككتها من المصحف.

وروي عنه أيضًا أنه قال لأبي عمرو بن العلاء البصري –أحد القراء السبعة المعروفين–: أحب أن تقرأ هذا الحرف (وكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيماً) أي: أن يقرأه بفتح الهاء من اسم الجلالة ليكون موسى هو الذي كلَّم اللهَ ولا يكون في الكلام دلالةٌ على أن الله كلَّم أحدًا. فقال له: وكيف تصنع بقوله: {وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف 143]؟ فبهت الذي كذب على الله.(26)

فالهاء في قوله: {كَلَّمَهُ} ضمير مبني في محل نصب مفعول به مقدَّم، والفاعل هو (ربُّ)، فلا مجال أمامهم للتلاعب بالإعراب لتحريف النصِّ.

الشاهد: أن هذا الرجل لا يؤمن بما جاء عن الله، ولا يفرح به، والله عز وجل يقول: {والذين أتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك}، وهؤلاء ما فرحوا بما أنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

---

(25) انظر: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (9)، طبعة مكتبة السنة بالقاهرة (1415هـ)، تحقيق/ سيد بن عباس الجليمي.

(26) انظر: «بيان تلبيس الجهمية في تأسيسهم بدعهم الكلامية» (303/3)،لشيخ الإسلام ابن تيمية.

فالواجب عليك أيها المؤمن أن تفرح بكل ما أنزله الله على رسوله، ولا تكن كأهل الأهواء والبدع الذين تقشعر أبدانهم وتنفر نفوسهم إذا تليت عليهم آيات الله التي أخبر فيها عن أسمائه وصفاته.

روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه «عن ابن عباس رضي الله عنه أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكارًا لذلك، فقال: ما فَرَق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهِه»([27]).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله معلقًا: «قوله: «ما فرق هؤلاء» يحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون «ما» استفهامية إنكارية. وفَرَقَ بفتح الفاء والراء وهو الخوف والفزع، أي: ما فزع هذا وأضرابه من أحاديث الصفات واستنكارهم لها؟ والمراد الإنكار عليهم، فإن الواجب على العبد التسليم والإذعان والإيمان بما صح عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وإن لم يحط به علمًا. ولهذا قال الشافعي: «آمنت بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنت برسول الله، وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله».

والثاني: أن يكون بفتح الفاء وتشديد الراء، ويجوز تخفيفها. و«ما» نافية أي: ما فَرَّق هذا وأضرابه بين الحق والباطل، ولا عرفوا ذلك، فلهذا قال: «يجدون رِقَّةً» أي: لينًا وقبولاً للمحكم، وهي ضد القسوة، «ويهلكون عند متشابهه»، أي: ما يشتبه عليهم فهمه...». أهـ([28]).

ثم ذكر المصنف رحمه الله تقسيم أهل الكلام لصفات الله عز وجل، وأنها عندهم ستة أقسام.

ومن مزايا الشيخ الشنقيطي رحمه الله –زيادة على تَبَحُّرِهِ في علومِ القرآنِ والسُّنةِ والفقهِ وأصولِه– أنه كان عالماً بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام حيث درسها في بلده «شنقيط» قبل انتقاله إلى المملكة العربية السعودية.

ومثله أيضًا الشيخ محمد خليل هراس، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد الرحمن الوكيل الذين كانوا قد درسوا هذه العلوم في الأزهر، ثم رفعوا لواء أهل السنة وتَصَدَّوا لقمعِ أهل البدع والردِّ عليهم بأساليبهم

([27]) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» برقم (2960)، والحديث المشار إليه هو حديث أبي هريرة في احتجاج الجنة والنار، أخرجه مسلم (2846).

(28) «تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد» (465)، للشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

وعلومِهم، ومن قبلهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله عليه، فقد كان على دراية تامة بعلم الكلام وعلم الفلسفة والمنطق، رحمة الله عليهم أجمعين.

قال رحمه الله: «قسَّموا صفات الله جل وعلا إلى ستة أقسام، قالوا: هناك صفة نفسية، وصفة معنى، وصفة معنوية، وصفة فعلية، وصفة سلبية، وصفة جامعة، أما الصفات الإضافية فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج»:

وسيتناول المصنف رحمه الله هذه الأقسام بالشرح والتفصيل، لكن أعجل هنا ببيان المراد بالأمور الاعتبارية فهي عندهم أمور كلية لا وجود لها في الخارج –أي خارج الذهن([29])–فجعلوا الصفات الإضافية أمورا اعتبارية لا وجود لها خارج الذهن، أي أنها في الحقيقة ليست صفةً.

كما أنهم جعلوا الصفات الفعلية صفات إضافية، أي مضافة إلى الله اكتسبها لوجود متعلَّقها وهو المفعول المخلوق كالخلق والرَّزق والإحياء والإماتة، وذلك كمثل صفة الأبوة عند المخلوق ما اكتسبها المخلوق إلا لوجود الابن ولولا وجوده ما اكتسبها الأب، وما هي إلا نسبة وإضافة، ثم إنهم جعلوا هذه الصفات الإضافية أمورا اعتبارية كلية لا وجود لها خارج الذهن، كما سبق بيانه.

وسيقوم المصنف رحمه الله بشرح الصفات المثبتة عند المتكلمين لا ليعلمنا المنطق أو علم الكلام، وإنما ليحاجج هؤلاء بما أثبتوا، وكأنه يقول لهم: قد أثبتم لله سبع صفات فقط ونفيتم عنه ما عداها من الصفات، فما حجتكم في ذلك؟

فقد أثبتم معشر المتكلمين لله عز وجل صفات الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، وهذه الصفات التي أثبتموها مشتركة بين الخالق والمخلوق، فعلام أثبتم هذه السبعة ونفيتم ما عداها؟

فإن قلتم: فرارًا من التشبيه؟ قلنا: إنه على قاعدتكم في الصفات التي أثبتموها قد شبهتم الله تعالى بخلقه لما جعلتم لله سمعاً وللمخلوقات سمعًا، ولما جعلتم له بصرًا وللمخلوقات بصرًا.

فإن قلتم: إن هذه الصفات في حقِّ الله لا تُماثِلُ صفات المخلوقين.

قلنا: يلزمكم القول بذلك في سائر الصفات التي نفيتموها، فالقاعدة واحدة.

([29]) **فالأذهان قد تتخيل أشياء لا وجود لها في الواقع الخارجي.**

فالشيخ رحمه الله أتى بهذا الكلام من أجل أن يحاجج هؤلاء ومن أجل أن يقيم عليهم الحجة من كلامهم.

قال المصنف رحمه الله:

ثم إنَّا نبين لكم على تقسيم المتكلمين ما جاء في القرآن العظيم مِن وصف الخالق جل وعلا بتلك الصفات، ووصف المخلوقين بتلك الصفات، وبيان القرآن العظيم أن صفة خالق السماوات والأرض حق، وأن صفة المخلوق حق، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق؛ فصفة الخالق لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وفنائه وافتقاره، وبين الصفة والصفة من المخالفة كمثل ما بين الذات والذات.

قال الشارح:

يعنى في القرآن وفي السنة المطهرة وصف لله بالسمع ووصف للمخلوق بالسمع، ووصف الله بالسمع لا يماثل وصف المخلوق، ووصف المخلوق بالسمع لا يماثل وصف الخالق؛ لأن صفة الخالق تليق بذاته وجلاله وعظمته، وصفة المخلوق تناسب عجزه وتناسب فناءه وافتقاره؛ لأنه مخلوق، فالصفة غير الصفة كما أن الذات غير الذات.

نحن والمبتدعة جميعًا نثبت أن لله ذاتاً، وأن لنا ذواتاً، فهل تشبه ذواتنا ذات الله سبحانه وتعالى؟

الجواب: لا، فكذلك الصفات، فإن القول في الصفات كالقول في الذات، فكذلك الصفة نثبتها لله ونثبتها للمخلوق، والفرق بين الصفة والصفة كالفرق بين الذات والذات.

[تقسيم الصفات عند المتكلمين]:

[أولا: صفات المعاني]

قال المصنف رحمه الله:

أما هذا الكلام الذي يُدرَّس في أقطار الدنيا اليوم في المسلمين فإن أغلبهم إنما يثبتون من الصفات التي يسمونها صفات المعاني سبع صفات فقط وينكرون سائرها من المعاني.

وصفة المعنى عندهم في الاصطلاح ضابطها: هي ما دل على معنى وجودي قائم بالذات، والذي اعترفوا به منها سبع صفات هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام.

قال الشارح:

انتشر هذا الكلام في الدنيا انتشاراً كبيرًا لدرجة أن بعض المشايخ المشاهير الكبار يقول: (إن ٩٥ % من المسلمين أشاعرة)، وهذا كلام عار عن الصحة تمامًا، فهل 95% من الأمة متخرجون في جامعة الأزهر مثلًا أو غيرها من الجامعات التي تتبنى المذهب الأشعري، بل إننا نجزم أنه ليس كل من تخرج في هذه الجامعات يتبنى الفكر الأشعري أصلًا.

أما عامة المسلمين فإن اعتقادهم فطري ولا يعرفون هذه الأمور، بل إنك لن تجد عاميًّا يثبت لله سبع صفات، ولا صفة جامعة، ولا صفات سلبية، ولا يعرف مثل هذا الكلام، بل إن كثيرًا من طلبة العلم الشرعي لا يعرفون مثل هذا الكلام.

وأذكر أن إسلام البحيري قبل أن ينقلب على الأزهر كان أول ما يتكلم يطعن في ابن تيمية ويطعن في محمد بن عبد الوهاب، وفي السلفيين، ويقول: نحن الأشاعرة؛ وإنه لكذاب فماذا يعرف عن الأشاعرة، لكنه كان يتشدق بقوله: (نحن الأشاعرة)؛ تقربا للأزهر لتحييده حتى أن انقلب عليه علماء الأزهر حين علموا خبيئته وأنه لا يهدف إلى محاربة ابن تيمية والسلفيين فحسب بل يهدف إلى محاربة الدين كله والسعي إلى تبديله وتحريفه والقضاء عليه.

وحينما سمعته أول مرة ظننته أزهريا ومعه شهادة علمية، لكن اتضح أنه لا يعرف شيئًا، ولا يعرف عن الأشعري إلا اسمه، بل قد يكون لا يعرف اسمه كاملًا، أو يظن أنه أبو موسى الأشعري الصحابي رضي الله عنه، فهذا الرجل ما عرف الأشعرية أصلًا، بل له قصة أخرى لا نريد أن نُلطِّخ ألسنتنا بالكلام فيها.

وعلى كلٍّ فإن الأشاعرة يثبتون لله من صفات المعاني سبع صفات فقط وينكرون سائرها من المعاني، وضابط **صفات المعاني عندهم**: «**ما دل على معنى وجودي قائم بالذات**»، يعني اسم له صفة ولها معنى قائمٌ بذات الله.

قوله: «**وجودي**»: عكس «عدمي أو سلبي»؛ فالصفات السلبية عِنْدُهُمُ هي: الْقِدَمُ، وَالْبَقَاءُ، وَالْوَحْدَانِيَّةُ، وَالْمُخَالَفَةُ لِلْخَلْقِ، وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ، وضَابِطُها عِنْدَهُمْ: أنها الصفة الَّتِي لَا تَدُلُّ بِدَلَالَةِ الْمُطَابَقَةِ عَلَى مَعْنًى وُجُودِيٍّ أَصْلًا، وَإِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى سَلْبِ مَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ عَنِ اللَّهِ، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

لكن كلامنا هنا عن صفات المعاني وهي صفات وجودية؛ فالله حي له حياة قائمة بذاته، سميع له سمع قائم بذاته، وهكذا، بعكس المعتزلة الذين يعتبرون هذه الأسماء أعلامًا محضة لا صفة فيها، فيقولون: عليمٌ بذاته فينفون عن الله صفة العلم، حيٌّ بذاته فينفون عن الله صفة الحياة، فعندهم أنه لا تقوم بذات الله معاني متعددة؛ لأن هذا يعود على أصل التوحيد عندهم بالإبطال، لأن هذا يؤدي إلى تعدد القديم، والقديم واحد في ذاته، فبناء على ذلك لا تقوم به معاني متعددة. وهذا كلام لا شك أنه مخالف للمعقول والمنقول بل ومخالف للغة العرب أيضاً.

قوله: والذي اعترفوا به منها سبع صفات هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام»: وعند التحقيق نجد أن صفة الكلام هذه غير موجودة عندهم؛ لأن الكلام عندهم هو الكلام النفسي، وأما القرآن الذي بين أيدي الناس فمخلوق عند الأشاعرة، وما هو إلا عبارة عن كلام الله النفسي ومفهوم منه أو حكاية له وأما اللفظ فهو لجبريل أو لمحمد عليهما السلام عبرا به عن كلام الله النفسي القديم، فهم بذلك يطابقون قول المعتزلة في القول بخلق القرآن، ولكن كما يقال: المسألة فيها مواربةٌ ولفٌّ ودورانٌ.

قال المصنف رحمه الله:

ونفَوا غير هذه الصفات من صفات المعاني التي سنبينها ونبين أدلتها من كتاب الله، وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلةُ، وأثبتوا أحكامها، فقالوا: هو قادر بذاته، سميع بذاته، عليم بذاته، حي بذاته، ولم يثبتوا قدرةً ولا علماً ولا حياةً ولا سمعاً ولا بصراً، وهو مذهبٌ كُلُّ العقلاء يعرفون ضلالَه وتناقضَه، وأنه إذا لم يقم بالذات علمٌ استحال أن تقول: هي عالمة بلا علم، وهو تناقض واضح بأوائل العقول.

قال الشارح:

غاية مذهب الأشاعرة الصراع مع المعتزلة فقط، وهذا واضح لمن تتبع تأصيلاتهم وأقوالهم وردودهم، فمثلًا هنا لما نفى المعتزلة المعاني سموها هم صفات المعاني، وكذلك في مسألة القرآن نفى المعتزلة صفة الكلام عن الله تعالى وقالوا: القرآن مخلوق، وقال الأشاعرة بإثبات الكلام النفسي القديم وأنكروا أن يكون الكلام متجددا ومحدثا وأن يتكلم الله بحرف وصوت أي أنكروا الكلام اللفظي وبالتالي قالوا إن القرآن حكاية عن كلام الله النفسي وعبارة عنه عبر بها باللفظ جبريل أو محمد، وهذا يعني في النهاية موافقة المعتزلة في القول بخلق القرآن؛ فخالفوهم في الظاهر ووافقوهم في الباطن.

وكذلك في باب القدر تَجِدُ المعتزلةَ قدريةً نُفاةً يقولون: إن الأمرَ أُنُفٌ والعبدَ يَخلقُ فِعلَه ونَفَوْا قَدَرَ اللهِ تعالى وخَلْقَ اللهِ لأفعال العبادِ، فجاءت الأشاعرة فخالفوهم واخترعوا مسألة الكسب، حاولوا من خلالها الروغان وقاموا بعملٍ تمويهِيٍّ ليَدَّعُوا موافقةَ السَّلفِ ومخالفة القدرية والجبرية، وحقيقة مذهبهم موافقة الجبرية، فقالوا بقضية الكسب التي تخالف النقل والعقل والفطرة والحسَّ وسلبوا عن الأسباب تأثيرها حتى قالوا النار لا تحرق والماء لا يروي والطعام لا يشبع والسكين لا تقطع إنما يخلق الله هذه الصفات عند اقترانها بفعل العبد وأن فاعل ذلك على الحقيقة هو الله تعالى، حتى جعلوا للفُسَّاق والقتلة والمجرمين أعظم حجة على جرمهم إذ يترتب على قولهم أن القاتل لم يقتل وأن الفاعل الحقيقي هو الله تعالى ،والعبد إنما اكتسب الفعل وليس بفاعل، فيا له من قول مناقض للنقل والعقل.

وفي مسألة رؤية المؤمنين لربهم في الجنة وجدنا المعتزلة ينفون ذلك ويقولون الله لا يُرَى؛ فخالفتهم الأشاعرة فأثبتوا الرؤية، ولما احتجت المعتزلة عليهم بأنهم يوافقونهم في إنكار علو الله تعالى فكيف يُرَى؟! فأجابوا إجابة أضحكت منهم العقلاء وجعلتهم محل سخرية المعتزلة وغيرهم إذ قالوا: الله تعالى يُرى ولكن لا في جهة.

وفي مسألة التحسين والتقبيح العقليين قالت المعتزلة: العقل يملك أن يحسن ويقبح بذاته ويحلل ويحرم بناء على ذلك مطلقا، فجاءت الأشاعرة فقالوا بضد ذلك إذ قالوا بنفي التحسين والتقبيح بالعقل مطلقا، وكلاهما مخطئ مخالف للحق؛ فالأولون غلوا في العقل وجعلوه مشرعا مع الله تعالى يحلل ويحرم، والآخرون(الأشاعرة) جحدوا الحق وجحدوا نعمة العقل الذي ميز الله به الإنسان وجعله محلا للتكليف، والحق وسط بينهما.

وهكذا في أبواب متعددة تجد الأشاعرة على صراع مع المعتزلة وتجد أن قولهم يكون من باب ردِّ الفعل المعاكس لقول المعتزلة ليس إلا، وكلا الفريقين في هذه المسائل المذكورة مخالفون للكتاب والسنة واعتقاد الرسول صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة.

قوله: «**أوائل العقول**»: يعنى بدائه العقول، بدون مقدمات، فهناك أمور يعرفها الإنسان ببداهة العقل؛ مثل: الواحد نصف الاثنين، والكل أكبر من الجزء، هذه أمور لا أحتاج أن آتي لك بمقدمات وأدلة عليها، فيقال: هي أوائل العقول، أو الأمر البديهي الذي لا يحتاج إلى أن نستدل عليه بدليل واضح، بل هكذا بالبديهة بدون تفكير.

فهؤلاء مجانين يُعرف جنونهم ببدائه العقول، حينما يقول أحدهم: إن رب العالمين عليم بذاته، رحيم بذاته، ولا يثبت لله صفة العلم ولا صفة الرحمة، فما قولهم حينما يثبت الله تعالى لنفسه في القرآن الكريم اسمًا كقوله: {العليم}، وصفة كقوله: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} وفعلًا كقوله {يعلم ما في السماوات وما في الأرض} فذكر الاسم، وذكر الصفة، وذكر الفعل، فكيف ينفون عن الله صفاته ويقولون: الله عليم يعنى يعلم بذاته، وينفون عنه صفة العلم؟!، وهكذا في سائر الصفات كالرحمة مثلا فقد أثبت الله لنفسه الاسم فقال {هو الرحمن الرحيم} والصفة كقوله {فانظر إلى آثار رحمة الله}، والفعل كقوله: {يرحم من يشاء}، فالله اسمه الرحمن الرحيم وله رحمة يرحم بها من يشاء من عباده، وأنتم تقولون: الله رحمن رحيم يعني بذاته ولكن لا رحمة له؛ فتنفون عنه صفة الرحمة؟، فغاية الأمر أن المعتزلة أرادوا أن يخالفوا الجهمية –الذين نفوا الأسماء والصفات– فأثبتت المعتزلة الأسماء ونفوا الصفات فإذا بهم يقعون فيما أنكروه على الجهمية؛ لأن مقتضى نفي الصفات هو نفي الأسماء، فمن قال: عليم بلا علم أو سميع بلا سمع فقد نفى اسم العليم واسم السميع؛ فيلزمهم القول بمذهب الجهمية؛ وقد كان السلف فقهاء وعلماء بحق يسمون الأشياء بأسمائها الحقيقية فقالوا عن المعتزلة: هم جهمية؛ ولذا نجد الإمام أحمد يسميهم جهمية وذلك حينما كتب في الرد على القائلين بخلق القرآن.

قال المصنف:

فإذا عرفتم هذا فسنتكلم على صفات المعاني التي أقروا بها، فنقول:

١- وصفوا الله بالقدرة، وأثبتوا له القدرة، والله جل وعلا يقول في كتابه: {إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٠]، ونحن نقطع بأنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة قال: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ} [المائدة: ٣٤]، فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم، ونحن نعلم أن كل ما في القرآن حق، وأن للخالق جل وعلا قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين قدرة الخالق والمخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، وحسبُك بَوْنًا بذلك.

قال الشارح:

أثبت المتكلمون لله عز وجل صفة القدرة، ونحن معهم في هذا؛ لأنها ثابتة لله عز وجل بالقرآن وبالسنة، فهذا أمر قطعي ثابت لا شك فيه ولا شبهة.

لكن ثمة بَونٌ –أي فرق شاسع- بين قدرة الله التي هي صفته، وبين القدرة التي يتصف بها بعض المخلوقين، فإنها -أعني قدرة المخلوقين- تختلف قوة وضعفاً، فقدرتي ليست كقدرتك، وقدرتي ليست كقدرة رجل بطل في حمل الأثقال، وقدرة البشر ليست كقدرة المَلَك الذي حمل قرى قوم لوط ثم قَلَبَها، وهو جبريل عليه السلام.

وتبقى قدرةُ المخلوق مهما كانت قدرةً محدودةً؛ لأنها قدرة مخلوق حادث حتى ولو كان جبريلَ، أو حملة العرش، فإنهم يحملون العرش ومع ذلك فإن قدرتهم محدودة، لكنَّ قدرةَ ربِّ العالمين لا حدود لها، فقدرته تليق بجلاله وكماله، وقدرة المخلوق تتوافق مع عجزه وفنائه ومع ضعفه وافتقاره.

قال المصنف رحمه الله:

2، 3 – وصف نفسه جل وعلا بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: {إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} [الإنسان: ٢]، {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا} [مريم: ٣٨].

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق، فلله جل وعلا سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيَين مناسبَين لحاله من فقره وفنائه وعجزه، وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

قال الشارح:

وصف ربُّ العالمين نفسه بالسمع والبصر ووصف الحوادث المخلوقة بالسمع والبصر، وكما أن ذاته سبحانه ليست كذوات المخلوقين فسمع الله وبصر الله وقدرة الله وسائر صفاته ليست كسمع ولا بصر ولا قدرة ولا سائر صفات المخلوق.

رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي ((سُنَنِهِ)) بإسناد صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنَيْهِ.

وَمَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَسْمَعُ بِسَمْعٍ، وَيَرَى بِعَيْنٍ، فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى بَعْضِ الْأَشَاعِرَةِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ سَمْعَهُ عِلْمَهُ بِالْمَسْمُوعَاتِ، وَبَصَرَهُ عِلْمَهُ بِالْمُبْصَرَاتِ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ خَاطِئٌ؛ فَإِنَّ الْأَعْمَى يَعْلَمُ بِوُجُودِ السَّمَاءِ وَلَا يَرَاهَا، وَالْأَصَمَّ يَعْلَمُ بِوُجُودِ الْأَصْوَاتِ وَلَا يَسْمَعُهَا.([30])

وقوله: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}: هذا أسلوب تعجب يعنى ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا أي يوم القيامة، فالسمع يكون مختلفاً تماماً عن سمعهم في الدنيا، والبصر يكون مختلفاً تماماً عن بصرهم في الدنيا، وهذا الفرق في حق المخلوق، فكيف بالفرق بين الخالق والمخلوق؟!

[30])انظر: شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد خليل هراس(98/1) ط. دار الهجرة.

قال المصنف رحمه الله:

٤- وصف جل وعلا نفسه بالحياة، قال: {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ} [البقرة: ٢٥٥]، {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [غافر: ٦٥]، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: ٥٨].

ووصف أيضاً بعض المخلوقين بالحياة، قال: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [الأنبياء: ٣٠]، {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا} [مريم: ١٥]، {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ} [الروم: ١٩]، ونحن نقطع بأن لله جل وعلا صفة حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين صفة الخالق والمخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق، وذلك بَوْنٌ شاسِعٌ بين الخالق وخلقه.

قال الشارح:

الله عز وجل من أسمائه «الحي»، وله صفة الحياة، والكلام في صفة الحياة كالكلام في صفات القدرة والسمع والبصر، فهو الحي حياة كاملة لم يسبقها عدم ولا يعتريها نقص ولا يلحقها فناء؛ فهو الأول والآخر سبحانه وتعالى، وواضح جدا الفرق بين كون الله حيًا وبين كون العبد المخلوق -الحادث بعد عدمٍ الفاني بعد حياةٍ محدودةٍ ناقصةٍ تليقُ به- حياً، ولا يشتبهان إلا على فاقد العقل.

قال المصنف رحمه الله:

٥- وصف جل وعلا نفسه بالإرادة قال: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [البروج: ١٦]، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [يس: ٨٢].

ووصف بعض المخلوقين بالإرادة قال: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا} [الأنفال: ٦٧]، {إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} [الأحزاب: ١٣]، {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [الصف: ٨]، ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله وجلاله كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين إرادة الخالق والمخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

قال الشارح:

وصف الله عز وجل نفسه بالإرادة، والإرادة تنقسم إلى قسمين:

الأول: إرادة كونية قدرية، وهي التي لا تتخلف، ومنها قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}.

والإرادة الكونية هي التي ترادف المشيئة، فالمشيئة لا تنقسم.

الثاني: الإرادة الشرعية، وهي التي ترادف محبته سبحانه وتعالى، وهذه قد تتخلف، فتلك هي الإرادة الشرعية التي يأمر بما توجبه من شرائع؛ فالإرادة الشرعية هي ما يريده من عباده شرعا كما قال: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}، فهل وقع التخفيف؟ التخفيف موجود في الشرائع، ولكن الناس يصعبون على أنفسهم ويشددون، فالتخفيف مراد شرعا أما لو كانت الإرادة في الآية إرادة كونية لما تخلفت الإرادة أبداً.

وقوله: {يريد الله أن يتوب عليكم} هو يريد أن يتوب ويحبُّ ذلك ويحب التوابين، ولكن للأسف كثير من الناس لا يتوبون.

قال المصنف رحمه الله:

٦- وصف نفسه جل وعلا بالعلم قال: {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]، {لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء: ١٦٦]، {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ} [الأعراف: ٧].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم قال: {وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ} [الذاريات: ٢٨]، {وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ} [يوسف: ٦٨]، ولا شك أن للخالق جل وعلا علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء، كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين علم الخالق والمخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

قال الشارح:

هذه آيات أثبتت لله اسم العليم وصفة العلم له سبحانه، والكلام فيها على وزان ما سبق، فهو على ما يليق بالله تعالى، فهو علم واسع شامل أزلي لا يسبقه جهل ولا يعتريه نقص أو نسيان، قال الله تعالى: {والله بكل شيء عليم} وقال {إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء} وقال {هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة} وقال {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير}، أما علم المخلوق فعلم ناقص محدود يسبقه جهل ويعتريه نقص ونسيان ولا يكون إلا بإذن الله الكوني قال الله {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} وقال {وعلَّمك ما لم تكن تعلم} وقال {وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم} وقال {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا}، فبين علم الخالق والمخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

قال المصنف رحمه الله:

٧- وصف نفسه جل وعلا بالكلام، قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا} [النساء: ١٦٤]، {فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ} [التوبة: ٦]، ووصف بعض المخلوقين بالكلام، قال: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف: ٥٤]، {وتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ} [يس: ٦٥]، ولا شك أن للخالق جل وعلا كلاماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق والمخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

قال الشارح:

لو تلاحظون؛ هذه الجملة الأخيرة يكررها المصنف كإقامةٍ للحجَّةِ عليهم، فإذا كان ثمةَ اشتراكٍ بين صفة الخالق وصفة المخلوق ففي أصل وضع الكلمة من حيث اللغة، أي أنها من قبيل المشترك اللغوي، فالكلام مثلا أمر كلي يعقل في الأذهان، فإذا خرج إلى الوجود وأضيف إلى قائله المتصف به كان كلٌّ كما يليق به، فكلام الله ليس ككلام المخلوق، والفرق بينهما كالفرق بين الذات والذات.

وهكذا في سائر الصفات ذاتية كانت أو فعلية، فاستواء الله على عرشه، ليس كاستواء المخلوق، وكذلك مجيئه وإتيانه ونزوله سبحانه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -وانظر إلى كلمته ودقق فيها لترى أثر العلم السلفي الموافق للمنقول والمعقول-: «**وأما النزول الذى لا يكون من جنس نزول أجسام العباد** -فبدأ رحمه الله بالتنزيه-

فهذا لا يمتنع أن يكون في وقت واحد لخلق كثير، ويكون قدره لبعض الناس أكثر بل لا يمتنع أن يقرب إلى خلق من عباده دون بعض فيقرب إلى هذا الذي دعاه دون هذا الذي لم يدعه »([31])؛ لأنه نزولٌ لا كنزول المخلوق، بل هو نزولٌ يليق به سبحانه، فإذا أثبتم سمعًا وبصرًا لا كسمع ولا بصر المخلوقين، فكذلك نثبت استواءً ومجيئًا وإتيانًا ونزولا لا كاستواء ومجيء وإتيان ونزول المخلوقين؛ فكلٌّ من بابة واحدة.

قال المصنف رحمه الله:

هذه صفات المعاني، نظرتم([32]) ما في القرآن من وصف الخالق بها ووصف المخلوق، ولا يخفى على عاقل أن صفات الخالق حق، وأن صفات المخلوقين حق، وأن صفات الخالق لائقة بجلاله وكماله، وصفات المخلوقين مناسبة لحالهم، وبين الصفة والصفة كما بين الذات والذات.

وسنبين مثل ذلك في الصفات التي يسمونها سلبيَّة.

قال الشارح:

ولذلك قلنا لهم: لماذا حينما جئتم إلى بقية الأسماء والصفات الأخرى نفيتموها وحرفتم معناها، مع أنها جاءت في القرآن والسنة، فنفيتم عن الله صفة الرحمة بحجة: (أن الرحمة في لغة العرب معناها ضعف وخور في النفس وانعطاف ورقة في القلب، وما شاكل ذلك وهذا لا يليق بالله وبالتالي تُنفَى)، فمن قال إن هذه الأمور التي ذكرتموها في حق المخلوق تكون في حق الله تعالى؟!

إن هذا بالنسبة للبشر، لكن بالنسبة لله فإنها كما تليق به سبحانه.

وإذا نفيتم عن الله عز وجل صفة الرحمة لأجل تلك اللوازم المتوهمة في أذهانكم –من جراء سقوطكم في وحل التشبيه– فكيف تثبتون لله صفة السمع، والقول فيها كالقول في صفة الرحمة؛ فإن السمع بالنسبة للبشر إنما يكون عن طريق قناة الأذن، وأذن وسطى، وطبلة، وهواء يدخل ...إلخ، فتحدث ارتجاجات وموجات صوتية، وكذا وكذا كما هو معلوم عند الأطباء والمتخصصين، فهل سمع الله كذلك؟!

([31]) «شرح حديث النزول» (114)، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

[32]) هكذا في المسجل الصوتي وفي نسخة عالم الفوائد، أما في نسخة الجامعة الإسلامية والسنة: "سمعتم"، وهذا من تصرف الناشر، والإبقاء على لفظ المصنف أولى.

وكذلك الشأن بالنسبة للبصر؛ الإنسان يبصر بعينيه، والعين عبارة عن عدسات وشبكية، فيسقط الضوء عليها ثم ينعكس الضوء، فهل بصر الله هكذا؟

فإن قلتم: سمع لا كسمع المخلوقين، وبصر لا كبصر المخلوقين، قلنا: وكذلك رحمة لا كرحمة المخلوقين، وغضب لا كغضب المخلوقين، وهكذا.

وإن تعجب فاعجب لخذلان هؤلاء وكيف نفوا عن الله تلك الصفة العظيمة —صفة الرحمة- التي هي مطلب السالكين، وحولها يدندن العابدون، وكان من آثارها هذه الرحمة العظيمة التي جعلها الله في الأرض ليتراحم بها الخلق فترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه.

[ثانياً: الصفات السلبية]

قال المصنف رحمه الله:

وهذه الصفات التي يسمونها سلبية:

وضابط الصفة السلبية عند المتكلمين: هي الصفة التي دلت على عدم محض، والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله من غير أن تدل على معنى وجودي زائد على الذات.

قال الشارح:

ذكرنا فيما سبق أن ضابط صفة المعنى عندهم: «ما دل على معنى وجودي قائم بالذات»، فالعلم قائم بالذات، والسمع قائم بالذات، وهكذا. فصفة المعنى صفة وجودية دالة على إثبات، أما صفة السَّلب فإنها تعني النفي، فهي تدل على عدم محض.

يقول الباجوري —وهو من علماء الأشاعرة-: "إنما نُسبَت للسَّلبِ لأنها مفسَّرَةٌ به، إذ القدم سلب أولية الوجود، والبقاء سلب آخرية الوجود، والمخالفة للحوادث سلب المماثلة لها، والقيام بالنفس سلب الافتقار، والوحدانية سلب التعدد".

فضابط الصفة السلبية عند المتكلمين: أنها الصفة التي دلت على عدم محض.

مثال: صفتا القدم والبقاء: هاتان صفتان سلبيتان تنفيان عن الله سبحانه العدم، يعني لم يسبقه عدم ولن يلحقه عدم، فهاتان الصفتان تنفيان العدم عن الله، فالقِدَم يعني نفى العدم في الماضي فلا ابتداء له إذ لم يسبقه عدم، والبقاء يعني نفي العدم أو الفناء في المستقبل، فرب العالمين باقٍ لا نهاية له.

إذن معنى كون صفة البقاء وصفة القدم صفتان سلبيتان أنهما لم تثبتا شيئًا، وإنما سلبتا -يعني نفتا- عن الله ما لا يليق به، فالسلب إنما يدل على العدم المحض.

مثال ثانٍ: صفة الوحدانية: تعني عندهم أنه مسلوب عنه القسمة بالكمِّ، أو مسلوب عنه ذلك بالتعدد أو التجزُّؤ، يعني ليس باثنين، ولا واحداً يتجزأ، وهذا سلب يدل على عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء ولا مدح فيه ولا كمال.

هذه هي الصفات السلبية وضوابطها عند النفاة والأشاعرة، أما الصفات السلبية عند السلف فتختلف تماما عما اصطلح عليه الأشاعرة، ويُقصَد بالسلبية عند السلف: الصفات التي تدخل عليها: (لا، أو ما، أو ليس) مما هو وارد في القرآن الكريم، ولا يقصد به ما يقصده النفاة من وصف الله – عز وجل – بالسلوب أي النفي المجرد، وإنما يقع لتضمنه كمال ضد الصفة المنفية، وإلا فالنفي المحض عدم محض، والعدم لا مدح فيه بوجه من الوجوه.

ولذلك فإن مذهب السلف في الصفات السلبية أعلم وأحكم، فإنهم حينما يتكلمون عن الصفات السلبية لا يتكلمون عن السلوب إلا حسبما جاء في النصوص الشرعية، وقاعدة الشريعة في النفي: الإجمال، وفي الإثبات: التفصيل؛ ولذلك لا يكثرون من ذكر السلوب، أما في الإثبات فإنهم يُسهِبون في ذكر الصفات الدالة عليه التي جاء بها الوحي، وتلك هي طريقة القرآن: الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات، قال تعالى: {ليس كمثله شيء} هذا في النفي، {وهو السميع البصير} هذا في الإثبات، ومنه قوله تعالى في آخر سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فطريقة القرآن التفصيل في الإثبات لأنه دال على المدح، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله، وأما النفي فقد جاء في القرآن مجملًا؛ لأن مجرد النفي ليس كمالاً إلا إذا دل على صفة كمال، فالنفي في صفات الله ليس مرادًا لذاته، وإنما لإثبات كمال ضده وهو كمال الله عز وجل، فمثلًا قوله تعالى: {لا تأخذه سنة ولا نوم} هذه

صفات سلبية تنفى عن الله عز وجل السِّنَةَ والنومَ، وذلك للتدليل على كمال حياته وقيوميَّتِه؛ لأن الحياة إن اعتراها نوم كانت حياة ناقصة، ولذلك فإن أهل الجنة لا ينامون، لأن النوم أخو الموت فهو نقص في الحياة، فحينما ينفى عن الله صفة النوم والسنة وهي مقدمة النوم فذلك لكي يثبت كمال الحياة وكمال القيُّومِيَّة، فالله عز وجل هو القيوم على عباده فلو نام فأين القيُّومِيَّة حينئذ؟ فإنه إذا نام –وحاشاه– حصلت الغفلة عن الكون الذي يدبره –معاذ الله من اعتقاد ذلك– فكانت الصفات السلبية هنا في قوله: {لا تأخذه سنة ولا نوم} من أجل إثبات كمال الضد، فلا تأتى الصفات السلبية في القرآن والسنة إلا لإثبات كمال الضد، ولذلك قلَّت السلوب أو الصفات السلبية في الكتاب والسنة.

والخلاصة: أن النفي غالبًا ما يأتي في القرآن مجملًا ولا يأتي مفصلًا إلا لعلَّة بخلاف الصفات الثبوتية فإن الغالب فيها التفصيل لأنه كلما كثر الإخبار عنها وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما لم يكن معلوماً من قبل؛ ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه.

وأما الصفات المنفية التي نفاها الله عن نفسه فكلها صفات نقص ولا تليق به كالعجز، والتعب، والظلم، ومماثلة المخلوقين، والغالب فيها الإجمال؛ لأن ذلك أبلغ في تعظيم الموصوف وأكمل في التنزيه؛ فإن تفصيلها لغير سبب يقتضيه فيه سخريةٌ وتَنَقُّصٌ للموصوف.

والأصل في الصفات الثبوتية التفصيل كما ذكرنا ولكن قد يأتي الإجمال في أسماء الله تعالى وصفاته الثبوتية كقوله تعالى في الأسماء: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [لأعراف: 180] وقوله في الصفات {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: 60]؛ أي: الوصف الأعلى، وذلك لتكون بمثابة قاعدة مجملة تثبت في ذهن المؤمن ولا تغيب عنه.

وقد يأتي التفصيل في الصفات المنفية لأسباب منها:

- نفيُ ما ادَّعاه في حقه الكاذبون المفترون كقوله تعالى: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}** [المؤمنون: 91].

- دَفعُ توهُّمِ نقصٍ في كماله كقوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}**» [33].
- إذا كان ذلك لأجل تكميل الصفة الثبوتية كقوله في الحديث: «**أنت الأول فليس قبلك شيء**».([34])

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي، فالإثبات كإخباره بأنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وأنه سميع بصير ونحو ذلك والنفي كقوله {لا تأخذه سنة ولا نوم}، وينبغي أن يُعلَمَ أن النفي ليس فيه مدحٌ ولا كمالٌ إلا إذا تَضَمَّن إثباتا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل: ليس بشيء، فضلا عن أن يكون مدحا أو كمالا ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال. فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح كقوله : {الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم...} إلى قوله: {ولا يؤوده حفظهما} فنفي السنة والنوم: يتضمن كمال الحياة والقيام ؛ فهو مبين لكمال أنه الحيُّ القيومُ وكذلك قوله: {ولا يؤوده حفظهما} أي: لا يُكرِثُه ولا يُثقِلُه وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته وكذلك قوله: {لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض} فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض وكذلك قوله: {ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} فإن نفي مس اللغوب الذي هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة ونهاية القوة بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه وكذلك قوله: {لا تدركه الأبصار} إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ولم ينف مجرد الرؤية ؛ لأن المعدوم لا يرى وليس في كونه لا يرى مدح ; إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحا وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رئي، كما أنه لا يحاط

---

[33] «تقريب التدمرية» لابن عثيمين (16، 17)

34) تيسير المنان في شرح القواعد الحسان، للشارح الشيخ/ عادل السيد، وهو تحت الطبع.

به وإن علم فكما أنه إذا علم لا يحاط به علما فكذلك إذا رئي لا يحاط به رؤية فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحا وصفة كمال».أ هـ([35])

قال المصنف رحمه الله:

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية عندهم خمساً لا سادس([36]) لها، وهي عندهم: القدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس الذي يعنون به الاستغناء به عن المخصص والمحل.

قال الشارح:

القِدَم: تنفي العدم في البداية، أو سلب أولية الوجود، أي: ما لا ابتداء لوجوده.

والبقاء: تنفي العدم في النهاية، أو سلب آخرية الوجود، أي: ما لا انتهاء لوجوده

والمخالفة للخلق -ويعبرون عنها أيضًا بالمخالفة للحوادث- تعني كونه مخالفاً لها؛ لقوله: {ليس كمثله شيء}، وقوله: {لم يكن له كفواً أحد}.

والوحدانية: نفي الشريك.

وأما الغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس: فهو كما ذكر المصنف -رحمه الله- يعنون به الاستغناء به عن المخَصِّصِ والمحلِّ، وإلا فإن أيَّ إنسان منا ليس بمستغنٍ عمن يُخَصِّصُهُ، فالذي خصصك وجعلك تُخْلَق على هذا الشكل، من أمٍّ معينة وأبٍ معين، وجعلك في الزمان الفلاني وفي المحل الفلاني، كل ذلك أنت لست بغنيٍّ عنه ولا يوجد مخلوق غنيٌّ عن المخصص والمحل، لكن ربَّ العالمين مستغنٍ عن ذلك كله سبحانه وتعالى.

وتنبه يا طالب العلم إلى ما يرمي إليه الأشاعرة من وراء هذا التأصيل والتقسيم، فهم يهدفون من خلال إثبات صفة القيام بالنفس إلى نفي مسألة علو الله تعالى واستوائه على العرش، وكأنهم يظنون أن إثبات الاستواء على العرش يلزم منه أن يكون الله تبارك وتعالى محتاجا إلى العرش، وحاشاه سبحانه، مع أن عبارة علماء

---

[35]) الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت/ محمد بن عودة السعوي صـ 57

[36]) في الأصل: لا سادسة لها، ولعله سبق لسان من المصنف، والصواب: لا سادس لها، كما هو مثبت.

السلف في ذلك واضحة: «**العرش وحملة العرش في فقر ذاتي إلى الله، والله غنى عن العرش وعن حملة العرش، بل الذي يحمل العرش وحملة العرش هو ربُّ العالمين**».

ولذلك نريد هنا أن نبين شيئًا مهما حتى تتضح الأمور في مسألة صفة الغنى وغيرها من الصفات:

فإن صفة الغنى لم تأت في القرآن في حق الله تعالى معدَّاةً إلا بـ«عن»، ولم تأت مرة مُعدَّاةً بالباء، فلم يقل مرة: غنى بكذا، وإنما: غنيٌّ عن كذا، {فإن الله غنيٌّ عن العالمين}.

أما أنت أيها المخلوق فلا تستطيع أن تكون غنيًّا عن الله، بل أنت فقير بذاتك إلى الله، فالفقر فيك صفة ذاتية، فهل تستطيع أن تستغنى عن الله؟ بل هل تستطيع أن تستغنى عن الهواء أو عن الطعام والشراب؟ هل تستطيع أن تستغنى عن الناس كل الناس؟ والجواب: قطعا لا، إنك لن تستطيع أن تعيش وحدك، ومع ذلك فإن رب العالمين سبحانه وصف الإنسان في القرآن بأنه من الممكن أن يكون غنياً، قال سبحانه: {ومن كان غنياً فليستعفف} لكن غنى بماذا؟ فإن من استغنى بشيء فإنه فقير إليه، وتلك معادلة صحيحة:

[غني بكذا = فقير إلى كذا].

غنى بالمال = فقير إلى المال.

غنى بالمنصب = فقير إلى المنصب.

غنى بالسلطة = فقير إلى السلطة.

غنى بالناس = فقير إلى الناس.

غنى بالله = فقير إلى الله.

ويكون قدر الغنى الحقيقي بقدر استغنائك، وطبعاً لن تستطيع أن تكون مستغنياً عن كل شيء، ولكن بقدر ما تستغني يكون غناك، فالغنى هنا أمر نسبي.

لكن الله رب العالمين هو المتصف بالغِنَى المطلق فهو غنيٌّ عن البشر وعن العرش وحملة العرش، بل غنيٌّ عن الخلق أجمعين، فلا تظنوا أن الله غنيٌّ بالعرش أو غنيٌّ بالجنَّة أو غنيٌّ بالملائكة، كلا، فإنه سبحانه ليس في

حاجة إلى أي من هؤلاء، وإنما رب العالمين غني عن كل خلقه، وإذا جاز أن نقول: غنيٌّ بكذا فهو غنيٌّ بذاته، غنيٌّ بأسمائه، غنيٌّ بصفاته العليا سبحانه وتعالى.

فلا تعارُضَ بين غِناه عن خلقه واستوائه على عرشه، فهو الغنيُّ الحميدُ سبحانه.

وقد قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}

وقال الله تعالى في الحديث القدسي:« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا؛ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»([37])

قال المصنف رحمه الله:

فإذا عرفتم هذا فاعلموا أن القدم والبقاء اللذين وصف المتكلمون بهما الله جل وعلا زاعمين أنه وصف بهما نفسه في قوله: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} [الحديد: ٣] [قد وصف بهما المخلوق]([38]).

والقِدَمُ في الاصطلاح عندهم: عبارة عن سلب العدم السابق، إلا أنَّه عندهم أخصُّ من الأزل؛ لأنَّ الأزل عبارة عما لا افتتاح له، سواء كان وجودياً أو عدميًّا.([39])، والقدم عندهم: عبارة عمَّا لا أول له، بشرط أن يكون وجودياً، كذات الله المتصفة بصفات الكمال والجلال.

---

37) رواه مسلم في صحيحه (2577) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

38) الجملة بين المعكوفين ليست في الأصل الصوتي وإنما من هي من نسخة الجامعة الإسلامية، وهي مناسبة للسياق وبها يتم المعنى ويتسق السياق.

قال الشارح:

وصف المتكلمون اللهَ عز وجل بألفاظ ليست قرآنية ولا نبوية، فقالوا: القدم والبقاء...، فلماذا لم يقولوا: {هو الأول والآخر} كما قال الله عز وجل؟ وهذا أمر غريب، ثم بعد ذلك يُدَرِّسُون ذلك لطلابهم ويقولون: هذا هو منهج أهل السنة! وهذا كذب، فإن منهج أهل السنة هو استعمال الألفاظ القرآنية والنبوية لا الألفاظ المبتدعة أو الموهمة.

قوله: «والقِدم في الاصطلاح عندهم: عبارة عن سلب العدم السابق، إلا أنه –أي القدم– عندهم أخص من الأزل...»:

كلمة الأزل معناها: ما لا بداية له، وتنقسم إلى قسمين: ما لا بداية له في الوجود، وما لا بداية له في العدم.

ولذلك قال: «إلا أنه عندهم أخص» لأن الأزل ينقسم إلى وجودي وعدمي، وأرجو أن ننتبه لهذا الكلام؛ قال: القدم أخص من الأزل؛ لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له سواءً كان وجوديًا كذات الله تعالى وصفاته، أو عدميًّا يعني: أيُّ شيء معدوم لم يخلق ولا وجود له، فهذا الأمر المعدوم لا بداية له؛ فيوصف بالأزل ولا يوصف عندهم بالقِدَمِ ؛ لأن هذا العدم لم يكن موجودًا ثم عُدِمَ، فليس له بداية أصلًا؛ فهذا ينطبق عليه لفظ الأزل، هكذا قالوا، ولذلك قال المصنف: **القِدَم عندهم عبارة عن سلب العدم السابق إلا أنه عندهم أخص من الأزل لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له وجودياً كذات الله وصفاته أو عدميًّا.**

فلو عملت هنا شجرة وقلت: الأزل: عبارة عما لا افتتاح له ولا بداية له، وعملت تفريعتين إحداهما في الوجود والأخرى في العدم، يكون القدم في الفرع الذي نتكلم فيه على الوجود، فالقدم وصف للموجود الذي لا بداية له غير مسبوق بعدم، وهذا لا ينطبق إلا على واحد فقط هو الله عز وجل، لكن بالنسبة لأي عدم آخر فهو غير مسبوق بشيء فيوصف بالأزل.([40])

---

[39]) في طبعة الدار السلفية بالكويت ت/ عطية محمد سالم، ومكتبة السنة بمصر (سواء كان وجوديا كذات الله وصفاته أو عدمياً) وفي نسخة الجامعة الإسلامية: (سواء كان وجوديا كذات الله وصفاته أو عدمياً كإعدام ما سوى الله). وفي ط عالم الفوائد "وجوديا أو عدما" كما في التسجيل الصوتي، ولعل الأنسب للسياق (عدميًّا) وهو ما أثبتناه.

[40]) الأزل عبارة عما لا افتتاح له، وهو على قسمين:

1– في الوجود: ويعني (القدم) وهذا لا مثيل له ولا يتحقق إلا في حق الله وحده.

2– في العدم: وينطبق على كل العدم.

قوله: «والقدم عندهم: عبارة عما لا أول له، بشرط أن يكون وجودياً، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال»:

ونحن نقول: هذا اصطلاح عند المتكلمين، والصواب أن نتكلم بالنصوص الشرعية فالله سبحانه هو الأول كما سمَّى نفسه في كتابه، أي لم يُسبق بعدم سبحانه، كما جاء في الحديث الصحيح: **"كان الله ولا شيء قبله"** أو **"لا شيء معه"**([41])، هذا وإن كنا نوافقهم على جواز إطلاق لفظ "القديم" في باب الإخبار إذ هو أوسع من باب الأسماء والصفات كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهم الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله:

ونحن الآن نتكلم على ما وصفوا به الله جل وعلا من القدم والبقاء، وإن كان بعض العلماء كره وصفه جل وعلا بالقدم لما يأتي([42]).

فالله جل وعلا وصف المخلوقين بالقدم قال: {تالله إنك لفي ضلالك القديم} [يوسف: ٩٥]، {كالعرجون القديم} [يس: ٣٩]، {أنتم وءابآؤكم الأقدمون} [الشعراء: ٧٦].

ووصف المخلوقين بالبقاء قال: {وجعلنا ذريته هم الباقين} [الصافات: 77]، {ما عندكم ينفد وما عند الله باق} [النحل: ٩٦].

ولا شك أن ما وُصِف به الله من هذه الصفات [مخالف لما وصف به الخلق نحو ما تقدم]([43]).

أما الله جل وعلا فلم يصف في كتابه نفسه بالقدم، وبعض السلف كره وصفه بالقدم، لتشبيهه بـ:([44]) {العرجون القديم} [يس: ٣٩]، {إنك لفي ضلالك القديم} [يوسف: ٩٥]، {أنتم وءاباؤكم الأقدمون} [الشعراء: ٧٦]، وقد جاء فيه حديث، بعض العلماء يقول: هو يدل على وصفه بهذا،

---

41) أخرجه البخاري (7418) من حديث عمران بن حصين.

([42]) في مطبوعة الجامعة الإسلامية ، والسنة، والدار السلفية: [كما يأتي]، والمثبت من ط. عالم الفوائد وهو الموافق للمسموع.

43) انقطع التسجيل الصوتي هنا، وأُكمِلَت الجملة بما بين المعكوفين بما يوافق السياق، وهو المثبت بجميع النسخ المطبوعة.

[44]) في طبعة الجامعة الإسلامية، والسنة، والدار السلفية: (وبعض السلف كره وصفه بالقدم لأنه قد يطلق مع سبق العدم نحو: "كالعرجون القديم"، "إنك لفي ضلالك القديم"...)

وبعضهم يقول: لم يثبت.([45])، [وقد ذكر الحاكم في المستدرك –في بعض الروايات– القديم في أسمائه تعالى، وفي حديث دخول المسجد: "أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم].

قال الشارح:

قال بعض العلماء لا يتصف الله بالقدم، وانما يتصف ربنا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وصف الله نفسه بقوله: {هو الأول والاخر}، {الأول}: الذى لا بداية له، {والآخر}: الذى لا نهاية له سبحانه وتعالى، وفسره النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»([46]). فربُّ العالمين هو الأول والآخر.

قوله: «فالله جل وعلا وصف المخلوقين بالقدم» أي كما وصفتم أنتم رب العالمين بالقدم فقد وصف الله تعالى بعض المخلوقين بالقدم، وكذلك وصف الله نفسه بالأول ووصف بعض خلقه بالأول، ووصف بعض خلقه بالآخر كما في تلك الآيات التي ذكرها رحمه الله، ولكن أولية تفترق عن أولية، وآخرية تفترق عن آخرية.

فلو تخرجت أنت في الامتحان وحصلت على المركز الأول، هل معنى ذلك أنك مشابه لرب العالمين أو مماثل لله في اسم الأول أو الصفة؟!

أما الحديث المشار إليه في المستدرك فقد رواه الحاكم رحمه الله في ذكر أسماء الله الحسنى من رواية عبدالعزيز بن حصين الترجمان عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: {إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ...ثم أخذ يذكر أسماء الله تعالى فذكر منها: القديم} وقد ضعفه بعض العلماء بعبد العزيز الترجمان راوي الحديث، وممن ضعفه الذهبي رحمه الله، وكذلك رواه ابن ماجة وإسناده ضعيف وابن مردويه وأبو الشيخ في التفسير وضعفه الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع، فهذه الزيادة المدرجة غير صحيحة أما الشطر الأول من الحديث " إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ" فثابت في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة.

---

45) إلى هنا ينتهي كلام المصنف في طبعة دار عالم الفوائد والدار السلفية، والزيادة المثبتة بين المعكوفين هي من طبعة الجامعة الإسلامية، ومكتبة السنة.

(46) أخرجه مسلم **(2713)** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأما حديث دخول المسجد المذكور في كلام المصنف فهو حديث ثابت أورده الألباني وصححه في «صحيح سنن أبي داود» ونصه: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»([47]).

لكنه لم يأت وصفًا لله، بل جاء وصفاً لصفةٍ، لا وصفًا للموصوف، والقدم هنا بمعنى الأزلي؛ لأن سلطانه سبحانه وتعالى أزلي، قال: «سلطانك القديم».

وقال البعض: يُخبَر عن الله بالقديم ولا شيء في ذلك لأنه طالما وُصفت الصفة بذلك؛ فالقاعدة: «الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات» ومع ذلك فإن الوصف بالأول والآخر هو الأنسب وهو الأولى وهو الأصح لثبوته في القرآن وفي السنة المطهرة، أما «القديم» فنكتفي بما ورد فيه ألا وهو وصف سلطان الله بأنه قديم.

فإن قلت: جاء عن بعض العلماء كابن تيمية وغيره ذكر وصف «القديم»!

قلنا: هذا مجاراة لهم؛ لأنه لا مشاحة في الاصطلاح، ولن يترتب على ذلك شيء خطير في الاعتقاد أو شيء من هذا القبيل.

حتى «القديم» حينما يقال يُقصد به الإخبار ولا يقصد به الصفة، فباب الإخبار أوسع من باب الوصف والتسمية، فأما التسمية فإن الله لا يُسمَّى إلا بما سمى به نفسه أو سمَّاه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمَّا الوصف فيشتق من الأسماء، أو تأتي الصفة صريحة في الكتاب والسنة، وكذلك الأفعال، لكن الإخبار عن الفعل وما شاكل ذلك فهو أمر واسعٌ جدًّا كما جاء عن أهل العلم، ولا يشترط في باب الإخبار أن يتكلم به عالم من العلماء السابقين بحيث إذا ذكره بعض العلماء المعاصرين يُشَنَّعُ عليه أو ينكر، كلا، فالقاعدة واحدة تسري على الجميع دون تمييز، فإن بعض أهل العلم قد يأتي بإخبار عن الله ولا يقصد الوصف ولا يقصد التسمية.

قال المصنف رحمه الله:

أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله: {هو الأول والآخر} [الحديد: ٣]، فقد وصف المخلوقين أيضاً بالأولية والآخرية، فقال: {ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين} [المرسلات ١٦، ١٧]،

([47]) أخرجه أبو داود (466) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وصححه العلامة الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

ولا شك أن لله أولية وآخرية لائقتان بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين أولية وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

وصف نفسه بأنه واحد، قال: {وإلهكم إله واحد} [البقرة: ١٦٣]، ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: {يسقى بماء واحد} [الرعد: ٤].

وصف نفسه بالغنى: {إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد} [إبراهيم: ٨] {فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد} [التغابن: ٦]، ووصف بعض المخلوقين بالغنى، قال: {ومن كان غنياً فليستعفف} [النساء: ٦]، {إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله} [النور: ٣٢].

فهذه هي صفات السلب، جاء في القرآن وصف الخالق والمخلوق بها، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله، وما وُصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

قال الشارح:

تكلم المصنف رحمه الله عن الصفات السلبية فذكر منها: القدم والبقاء والغنى وبيَّن أنها من الصفات المشتركة في مطلق المعنى بين الخالق والمخلوق لكن إذا أضيفت إلى الله فهي كما تليق بالله وجلاله وعظمته وإذا أضيفت إلى المخلوق كانت كما يليق بعجزه وضعفه وفقره، أما صفة المخالفة للخلق فلم يذكرها لأنها من خصائص رب العالمين وهي مأخوذة ومشتقة من قوله تعالى: {ليس كمثله شيء}، وكذلك من قوله: {ولم يكن له كفوا أحد} وقوله{ولله المثل الأعلى}، فهذه الصفة لا يوصف بها مخلوق أصلاً ولذلك لم يُمَثِّل المصنِّفُ لها في المخلوق، يعنى وجدنا مسألة الاشتراك في الأولية والآخرية أو (القدم والبقاء) والغنى أما هذه الصفة فلا، وكذلك الشأن بالنسبة للوحدانية فمن الممكن أن تكون لفظًا مشتركًا، لكن الوصف بالأحدية لا يكون مشتركًا، فالله وحده هو الأحد، وكذلك صفة المخالفة للخلق والحوادث لا تكون إلا لله تعالى فليس فيها اشتراك، ولذلك لم يأت بها المصنف ولم يمثل بها؛ لأن المخالفة للحوادث تعني أن الله مخالف للمخلوقات فليس كمثله شيء سبحانه، فتنبه أيها القارئ الكريم.

(ثالثا: الصفات المعنوية):

قال المصنف رحمه الله:

ثم نذهب إلى الصفات السبع التي يسمونها المعنوية، والتحقيق أن عدَّ الصفات السبع المعنوية التي هي: كونه تعالى قادراً، ومُريداً، وعالماً، وحياً، وسميعاً، وبصيراً، ومتكلماً، أنها في الحقيقة إنما هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبع التي ذكرنا، ومَن عدَّها من المتكلمين عَدُّوها بناءً على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية لا معدومة ولا موجودة، والتحقيق أن هذه خرافة وخيال، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً، ولا واسطة ألبتة، كما هو معروف عند العقلاء.

قال الشارح:

بعد أن فرغ رحمه الله من الكلام عن صفات المعاني السبع التي يثبتها المتكلمون بناءً على أنها صفات قديمة يتصف بها الباري سبحانه وتعالى وهي زائدة على الذات؛ لأنها معاني قائمة بالله عز وجل، شرع في الكلام عن الصفات المعنوية.

وكلمة «معنوية» في اللغة منسوبة إلى المعنى، والمعنوي خلاف المادي وخلاف الذاتي، وهو أمر يقوم بالذهن والتفكير فقط، ولذلك فهذه الصفات عندهم في حقيقة الأمر لا حقيقة لها، فهم يثبتون لله عز وجل صفة الإرادة والقدرة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، لكن هناك سبع صفات أخرى عندهم وهي: كونه تعالى قادراً، كونه مُريداً، كونه عالماً، كونه حياً، كونه سميعاً، كونه بصيراً، كونه متكلماً، وهذا الأمر لا يحتاج إلى هذه التقسيمات؛ لأن السميع من تقوم به صفة السمع، والبصير من تقوم به صفة البصر، والمتكلم من تقوم به صفة الكلام، والقادر من تقوم به صفة القدرة... وهكذا، ولو كان الأمر يقف عند هذا لما كان هناك مشكلة، لكنهم فرقوا بين صفات المعاني والصفات المعنوية، وما هي في الحقيقة إلا كيفية اتصاف الخالق سبحانه وتعالى بهذه الصفات –أي: صفات المعاني– التي ذكرناها.

ثم قال رحمه الله: «ومن عدَّها من المتكلمين عدوها بناءً على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية لا معدومة ولا موجودة».

والسؤال: هل توجد واسطة بين العدم والوجود؟ إن الشيء إما أن يكون معدومًا، وإما أن يكون موجودًا، لكنَّ هؤلاء قالوا: إن هذه الصفات واسطة، أي حال معنوية مفترضة في الذهن لا هي موجودة في الخارج ولا هي معدومة، بل هي واسطة بين العدم والوجود.

وهذا إشكال خطير جداً لا يوافقهم عليه أحد، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الصفدية» (151/1) تحقيق محمد رشاد سالم، وفي «منهاج السنة النبوية» تحقيق محمد رشاد سالم أيضاً (459/1)، وفي «العقل والنقل» (444/3) في ثلاثة مواضع – قال: «**وصار الناس يقولون: عجائب علم الكلام: طفرةُ النظَّام** (48)، **وأحوالُ أبي هاشم الجبائي**(49)، **وكسبُ الأشعريِّ**(50)، **ولهم في ذلك من الكلام ما يطول وصفه**».

وليكن معلوماً أن مصطلحات هؤلاء الناس لا ينضبط في تعريفها شيء، فهي ككثير من كلام الفلاسفة إنما هو كمضغ الماء، يمضغ المتحدث بها بدون وجود ما يمضغ، ولكن للأسف قد جعلها أهل البدع والأهواء مطيةً لكي يمرروا بها ما شاءوا من الباطل.

فهذه المصطلحات التي اخترعها هؤلاء المتكلمون ليس المقصود منها التفهيم، ولا التدليل على حقائق موجودة في الكتاب أو السنة أو توافقت عليها العقول؛ بل القصد من وراء وضع هذه المصطلحات أن تكون سبيل الله معوجة، وغرضهم منها أن تكون هذه المصطلحات مطيَّة يركبونها من أجل أن يمرروا ما شاءوا من الباطل، ولذا لا تجدونها منضبطة، بل يختلف الناس في ضبطها حتى القائلين بها، ولذلك قال بعض العلماء:

مما يقالُ ولا حقيقةً تَحتَه ... معقولةً تَدنُو إلى الأفهام

الكسبُ عند الأشعريِّ والحالُ ... عند البَهشَمِيِّ(51) وطفرةُ النَّظَّامِ

---

48) أخذ النظَّام من ملاحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ، ثم بنى عليه قوله بالطفرة، أي أن الجسم يمكن أن يكون في مكان (أ) ثم يصبح في مكان (ج) دون أن يمر في (ب)–

49) نسبة إلى مخترعها ومفتريها وهو أبو هاشم عبد السلام بن أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي (ت: 321هـ) وهو ابن أبي علي الجبائي زوج أم أبي الحسن الأشعري، وللأسف تبنى هذا القول كثير من الأشاعرة.

50) وذلك في مسألة القضاء والقدر، وهو قول غير معقول، ولا يقبله العقلاء.

51) والبهشمي نسبة إلى أبي هاشم الجبائي كما سبق، كما يقال: العبشمى نسبة إلى عبد شمس.

(ولا حقيقةَ تحته معقولةً): يعني لا توجد حقيقة، بل هذا الكلام تخاريف وأساطير، فلا توجد حقيقة -تحت هذا الكلام ولا تحت هذا المصطلح- معقولة.

«تدنو إلى الأفهام»: يعني تقترب إلى الأفهام.

فالكسب عند الأشعري، والحال عند البهشمي، وطفرة النظام، هذه من القضايا غير المعقولة أصلاً.

فالحاصل أن المتكلمين لم يتفقوا على قضية الحال، وإنما قال بها بعضهم، ففيها خلاف عند الأشاعرة أنفسهم، ولذلك كان الشيخ الشنقيطي أمينًا ودقيقًا في كلامه، قال: «ومن عدَّها من المتكلمين عدُّوها بناءً على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية، التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية —ليست سلبية وإنما هي شيء ثابت- لا معدومة ولا موجودة». سبحان الله! كيف تكون ثابتة وليست معدومة وليست موجودة؟! ولذلك كان هذا الكلام استخفافًا بالعقول.

قال: «والتحقيق أن هذه خرافة وخيال، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة —فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً، ولا واسطة ألبتة، كما هو معروف عند العقلاء»:

فلا يجوز أن يقال: هذا الشيء ليس موجوداً وليس معدوماً، إذ إن الوجود والعدم نقيضان، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان؛ فالشيء إما أن يكون موجودًا وإما أن يكون معدومًا، فكيف يبني القوم عقيدتهم على أمر بهذه المثابة؟! وكيف يجعلون مثل هذه الخرافات هي الدليل في إثبات بعض الصفات الإلهية ونفي باقيها، وفي الوقت نفسه يردون أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحيان بحجة أنها أخبار آحاد وأنها لا تفيد اليقين في باب الاعتقاد؟!

قال المصنف رحمه الله:

فإذًا قد مَثَّلنا(52) لكونه قادراً، وحياً، ومريداً، وسميعاً، وبصيراً، ومتكلماً، لما جاء في القرآن من وصف الخالق بذلك، وما جاء في القرآن من وصف المخلوق بذلك، وبَيَّنَّا أن صفة الخالق لائقة بكماله وجلاله، وأن صفة المخلوق مناسبة لحاله وفنائه وعجزه وافتقاره، فلا داعي لأن ننفي وصف رب

(52) في طبعة الجامعة الإسلامية: «فإذا كنا قد مثلنا»، والمعنى واحد، والمثبت هو الموافق للمسموع.

السموات والأرض عنه لئلا نُشَبِّهَهُ بصفات المخلوقين. بل يلزم أن نُقِرَّ بوَصفِ الله، ونؤمن به في حال كوننا منزهين له عن مشابهة صفة المخلوق.

قال الشارح:

نفى المتكلمون بعض صفات الله عز وجل فرارًا من التشبيه، وقالوا: إننا ننفى هذه الصفات حتى لا نشبه صفات ربنا سبحانه وتعالى بصفات المخلوقين! قلنا: إن صفات الخالق تليق بجلاله وكماله، وصفات المخلوق تناسب حاله وفنائه وعجزه وافتقاره فلا مشابهة بين صفات الله وصفات خلقه.

بل الواجب علينا أن نقر بوصف الله، ونؤمن به في حال كوننا منزهين له عن مشابهة صفة المخلوق، فحينما نسمع وصف الله عز وجل في القرآن والسنة يجب علينا أن نعتقد أن هذا الوصف ثابت له سبحانه، مع اعتقادنا أن الله منزه عن أن يشابه خلقه، فليس بين الخالق والمخلوق أي نوع من أنواع المشابهة أبداً، فيستحيل أن تكون هناك مشابهة بين الخالق والمخلوق، وإن كان هناك اشتراك في مطلق الصفة، فإننا نعقل في الأذهان معنى كليا مشتركا فإذا خرج إلى الوجود كان كلٌّ كما يليق به؛ فحياة الله ليست كحياة المخلوق، وإرادة الله ليست كإرادة المخلوق، وقدرة الله ليست كقدرة المخلوق، ويد الله ليست كيد المخلوق، واستواء الله ليس كاستواء المخلوق، فالحياة والإرادة والقدرة واليد والاستواء والرضا والغضب وغيرها من الصفات نعقل في الذهن معناها معنى كليا ولكن إذا أضيفت للخالق كانت كما تليق بالله وبعظمته وجلاله وإذا أضيفت إلى المخلوق كانت كما يليق بفقره وضعفه وعجزه.

وعليه فمتى وجدنا صفةً منسوبة لله عز وجل فلابد من أن يمتلأ القلب بالتنزيه لله سبحانه، فلا يتبادر إلى أذهاننا ولا إلى قلوبنا ولا إلى عقولنا أدنى مشابهة حتى يقال: نريد أن نؤول النص لأن الله لا يشابه خلقه! فمن قال إن الله يشابه خلقه؟!

فإن قلت: إن الله وُصِفَ بأنه حي، ووصف المخلوق بأنه حي، وهذا تشبيه.

نقول: وما وجه المشابهة هنا؟ فهذه حياة تليق بالخالق، وهذه حياة تليق بالمخلوق، هذا وجود يليق بالخالق، وهذا وجود يليق بالمخلوق، فإذا كان وجود الخالق سبحانه وتعالى غير مسبوق بعدم ولن يلحقه فناء، بل منه استُمِدَّ وجودُ المخلوقين الذين كانوا معدومين ثم سيصبحون فانين، فأين إذن هذا الوجود من ذاك الوجود، وأين هذه الحياة من تلك الحياة، وأين هذه الإرادة من تلك الإرادة، وأين هذه القدرة من تلك القدرة، وأين

هذه القوة من تلك القوة؟! وهكذا، فمتى جاءك وصف عن الله في الكتاب أو في السنة وجب عليك أن تفهمه في ضوء تنزيهك لله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين، فتثبت ما أثبته الله لنفسه إثباتًا من غير تكييف ولا تمثيل، وتنزهه سبحانه عن مشابهة خلقه تنزيهًا من غير تحريف ولا تعطيل.

فالمصنف رحمه الله ذكر هنا الكلام عن الصفات المعنوية وبيَّنَ أن هذه الصفات المعنوية التي يقول بها بعض المتكلمين ما هي إلا خرافة، وإلا فإننا نثبت أن الله متصف بهذه الصفات سبحانه وتعالى، وأن الله إن كان حياً فإنه متصف بالحياة لأن الحياة وصف للحيِّ، كما أن القدرة وصف للقدير، وأن الإرادة وصف للمريد، وهكذا

فإذاً لا نحتاج إلى القول بقضية الحال المعنوية التي هي أمر ثبوتي لا عدمي ولا وجودي، ونقع في الخرافات، ثم بعد ذلك ندَّعي أننا نقول بالمعقول، وأننا سادة العلم بالمعقول، سبحان الله! أين علمكم بالمعقول وأنتم تقولون كلامًا يتندر به الناس ويصوغون فيه أبيات من أجل السخرية منكم، وبعد ذلك تدعون أنكم علماء المعقول، بل إن علماء المعقول على الحقيقة هم علماء المنقول.

واقرأ في ذلك كتاب «درء تعارض العقل والنقل» أو «موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول»، ويعرف أيضًا بـ«العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذي قال عنه ابن القيم في «القصيدة النونية»:

واقرأ كتاب العقل والنقل الذي ... ما في الوجود له نظير ثان

[رابعًا: صفات الأفعال]

قال المصنف رحمه الله:

وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن بكثرة وصف الخالق بها ووصف المخلوق، لا شكَّ أن ما وُصِفَ به الخالق منها مخالف لما وُصف به المخلوق، كالمخالفة التي بين ذات الخالق وذات المخلوق.

قال الشارح:

بعد ما تكلم رحمه الله عن الصفات المعنوية والصفات السلبية وصفات المعاني شرع في الكلام عن صفات الأفعال عند أهل الكلام.

فكأنه رحمه الله سلَّم لهم بهذه التقسيمات ليقيم الحجة عليهم من كلامهم، فيقول: أنتم تثبتون لله هذه الصفات، وهي ثابتة أيضًا في حق المخلوق، فهل تقولون: إن حياة الله كحياة المخلوق؟ هل تقولون إن قدرة الله كقدرة المخلوق؟ هل تقولون سمع الله كسمع المخلوق؟ إن قلتم: لا، وهذا جوابكم، فيلزمكم إذاً أن تثبتوا لله رحمةً ليست كرحمة المخلوق، ورأفة ليست كرأفة المخلوق، واستواءً ليس كاستواء المخلوق، ورضا ليس كرضا المخلوق، فالباب في الصفات واحد، فلماذا أخذتم بعض الصفات وجعلتموها ثابتة لله ونفيتم بقية الصفات؛ فإما ان تُلزموا بما قالت المعتزلة وتقوموا بنفي كل الصفات، وإما أن توافقوا السلف الصالح فتثبتوا لله كل ما وصف نفسه به مع اعتقاد تنزيه الله تعالي عن مماثلة خلقه؛ لأن القول في باب الصفات واحد، فما الفرق بين أن تثبت لله صفة السمع والبصر، وبين أن تثبت له صفة الرحمة والاستواء والنزول واليد... إلخ؟

فإن قلت: أثبت صفتي السمع والبصر لأنها ثابتةٌ لله بنص الكتاب والسنة وموافقةٌ للعقل!

قلنا: وكذلك هذه الصفات ثابتة للمخلوق، قال سبحانه: {إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً}.

فإن قلت: نثبت لله سمعًا وبصرًا كما يليق بالله، ليس كسمع وبصر الإنسان.

قلنا: فلماذا تنفى إذن صفة الرحمة، يلزمك أن تقول: إن رحمة رب العالمين ليس كرحمة الخلق، بل هي رحمة تليق به، كما أن له سمعًا يليق به، وبصرًا يليق به، فلتكن كذلك رحمةً تليق به، ورحمة المخلوق تليق به، وكذلك استواؤه على العرش، وكذلك مجيئه، وإتيانه، فالباب واحد؛ فإما أن تنفي كل الصفات وتكون كالمعتزلة وحينئذ نقيم عليكم الحجة بكلامكم أنتم في نقدكم للمعتزلة في نفيها للصفات، وإما أن تلزموا بما أثبتموه، فالباب واحد.

[تعريف صفات الأفعال عند المتكلمين]:

صفات الأفعال عند المتكلمين هي عبارة عن صدور الآثار عن قدرته وإرادته.

يعني صفات الأفعال ليست صفات قائمة بذات الله عندهم، وإنما هي عبارة عن صدور الآثار عن قدرته وإرادته سبحانه، ومثَّلوا لذلك بصفة الخلق والرَّزق والإحسان والرحمة وما شاكل ذلك، ولذلك يقولون: الرحمة

إرادة الإحسان، فالإرادة عندهم إرادة كذا، الله يريد كذا؛ فإرادته أثرها يكون إحساناً، ويكون خلقاً، ويكون رَزْقاً.

فهم يثبتون صفة الإرادة والقدرة على الفعل، فحينما يريد شيئاً؛ فإن هذا الشيء الذي يريده يُسمى بصفة الخلق، أو بصفة الرَّزق وهكذا. فصفات الأفعال عند الاشاعرة ليست قديمة مثل صفة الحياة والقدرة؛ لأنها عندهم –أي الخلق والرَّزق– تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة. فليس عند الأشاعرة صفة تتعلق بذات الله اسمها الخلق ولا صفة اسمها الرَّزق كما مرَّ قريبًا.

لماذا لم يثبت الأشاعرة أمثال تلك الصفات؟

قالوا: لأن القدرة التنجيزية التي تحدث هذه حادثة، والحوادث لا تقوم بذات الله، والذي جرَّهم إلى هذا القول أصل عظيم عندهم وهو: «ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث»؛ وهذه مصيبة، فهم قد أثبتوا بذلك وجود الله وأثبتوا قِدَم الله عز وجل، فلو قيل لهم في نص من نصوص الصفات: هذه الصفة حادثة فقام بذات الله بعض الحوادث –كالكلام الحادث، كقوله: {ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث}، أو أن الله قد خلق الآن، أو رزق الآن، أو رحم الأن –فهذه كلها أشياء حادثة–، قالوا: لو قلنا إن هذه الأمور قامت بذات الله لعاد على أصل إثباتنا لوجود الله بالإبطال.

والإشكال عندهم أنهم قالوا: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، فإذا أثبتنا هذه الصفات، فمعنى ذلك أن الله قد قامت به الحوادث، فإذا قامت به الحوادث كان حادثاً وليس قديماً، فحينئذ يكون الرب عندهم حادثاً.([53])

---

[53]) وقديمًا كنا نحضر عند أحد المشايخ الأزهريين الكبار يدرس لنا أصول الفقه وعلوم القرآن وأصول التفسير وهو الدكتور محمد عبد المنعم القيعي رحمه الله أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين – جامعة الأزهر وقتئذ، وكان إذا تكلم أثبت منهج السلف في الأسماء والصفات، وكان رحمه الله يدافع عن ابن تيمية دفاعاً عظيمًا، وكان يحضر معنا طالب من طلابه المتفوقين في الدراسات العليا، وكان على مذهب الأشاعرة وأهل الكلام، وكان حافظًا لكلامٍ كثيرٍ جدًّا من كلام علمائهم، وقد أصبح فيما بعد عميدًا لإحدى الكليات الأزهرية، وله برنامج تليفزيوني حاليًا في محاربة السلفية، فكان إذا قرر الدكتور القيعي رحمه الله مذهب السلف أهل السنة والجماعة في اثبات صفات الأفعال انفعل هذا الطالب وارتعد وصاح قائلا: «ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث»، فعلمت أنه يخاف على عقيدته حسبما فهم من دراسته للعقيدة الأشعرية، فانظر كيف أُشرب قلبه هذه القاعدة التي جعلته لا يتقبل مجرد مناقشة المسألة خوفا على اعتقاده.

وأذكر أنه كان يعارض الشيخ ويقول له: يا دكتور: كذا وكذا، فيقول: له: يا محمد، إنك لست فاهمًا، فيقول: يا دكتور، السبكي قال كذا وكذا، فيرد عليه شيخنا قائلا: والله يا بني، لا أنت ولا السبكي تفهمان كلام ابن تيمية رحمة الله عليه.

وهذه مشكلة كبيرة جدا عندهم في هذا الباب، لذلك فإننا نقول: لابد من تصحيح الأفكار هنا، وتصحيح المناهج، وبيان منهج السلف في إثبات وجود الله تبارك وتعالى، وأن المسألة ليست مبنية على تلك الأصول الهشة والمصطلحات الهزيلة المخترعة، التي لا ينضبط في تعريفها شيء، وإنما هي مطيَّة لهم لإمرار ما شاءوا من الباطل.

فهذه القاعدة التي نفوا بها الصفات الفعلية -أعني قاعدة «ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث» - هي في الأصل من كلام الجهمية، وهذا الكلام لا يعرفه السلف أصلاً ولا يعتقدونه، وهي قضية تحتاج إلى مناقشة ودراسة وتحتاج إلى إفهام وهي غير مُسَلَّمةٍ أصلًا، ولذلك كان شيخنا الدكتور محمد عبد المنعم القيعى رحمة الله عليه يقول: «لا تُسلِّموا لهم بالمقدمات حتى لا تلزموا بالنتائج».

يأتي أحدهم فيلقي عليك المقدمة وأنت طالب صغير يافع غير مستوعب فتأخذها على أنها مُسَلَّمة مثل: [1+1=2]، ثم يتضح لك بعد ذلك أن السُمَّ مدسوس في هذه المقدمة، وأن المقدمة منطقيًّا غير صحيحة أصلًا كما سيأتي، وسيذكر الشيخ الشنقيطي هذا الكلام ويبين أنهم يدلسون ويكذبون في المقدمات حتى يُلزِموا الخصمَ بالنتيجة.

ولذلك علَّمنا شيخنا رحمه الله ألا نسلم بالمقدمات حتى لا نلزم بالنتائج، وقد ذكرت هنا الشيخ الدكتور القِيعِي واستشهدت به دون غيره؛ لأنه كان أستاذًا ورئيسًا لقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين- جامعة الأزهر، ولا يزال الأزهريون يعظمونه إلى الآن ويجلونه، وإذا تكلم أحدهم قال مفتخراً: أستاذنا الدكتور القيعي، فهو حجة عليهم رحمه الله تعالى؛ ليكون ذلك أقرب إلى قبول الحق عند مخالفي منهج السلف من الأشاعرة الأزهريين؛ فربما ثقل على بعضهم قبول الحق لصدوره عن بعض العلماء السلفيين كالشنقيطي وابن باز والألباني ونحوهم فها هو الشيخ القِيعِي الأزهري يقرر منهج السلف وينقض مذهب الأشاعرة فهلا يقبلون

وكنت أيامها في شبابي أتعجب من صنيعه ولم أكن أعلم حجم المأساة التي كان يعيشها والمعاناة التي كان يلقاها وذلك لعدم علمي وقتها بتلك الشبهات الكلامية، حتى فهمت هذه القضية واستوعبتها، وعلمت أن ذلك بما أُشرب قلبه وعقله من هذا الأصل الأصيل عندهم في إثبات وجود الله، واعتقادِه أنه لو سمح لعقله أو لقلبه يوما ما بالإيمان بصفات الأفعال وأنها تقوم بذات الله لعاد هذا على الأصل الأصيل عنده في إثبات وجود الله بالإبطال، فتلك مشكلة تهز اعتقاده الأصيل في وجود الله.

وليس معنى هذا الكلام أننا نقول إنه معذور في تبنيه للمناهج الباطلة وإنما هدفنا أن نبين أن سبب انحرافه عن الحق هو ما تلقَّاه عن شيوخه من الأشاعرة.

الحق؛ إذ الحق أحق أن يتبع، فإن من قواعد القرآن الكريم: أنه إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية والعملية محلٌ([54]).

فهل كان الدكتور القيعي وهَّابيًّا، وهل كان رجلًا لا يعرف الأصول، ولا يعرف العقائد، أم أنه تعلم في مدارس أو كتاتيب النجديّين؟!

لا، بل كان الرجل رحمة الله عليه أحد عُمُد الجامعة الأزهرية، وما زال إلى الآن له اسمه ومكانته الكبيرة جدًّا عند القوم.

فإذاً نحن نذكر لكم أساتذتكم الكبار، لا نذكر لكم شيخنا الدكتور/ محمد خليل هراس؛ لأن هذا الرجل كان منتسبًا لجمعية أنصار السنة المحمدية مع أنه تخرج في الأزهر رحمة الله عليه، ولكن نذكر لكم الشيخ الدكتور محمد عبد المنعم القيعي أستاذكم وعالمكم وشيخكم رحمة الله عليه، علما أن الواجب على العبد قبول الحق بدليله أيا كان القائل؛ فهلا استجبتم للحق![55]

وعَودٌ على بدءٍ نقول:

صفات الأفعال عند الأشاعرة ليست قديمة؛ لأنها عندهم عبارة عن تَعَلُّقات القدرة التنجِيزِيَّة الحادثة، أما الصفات الذاتية فهي السبع التي مرَّ ذكرها وهي التي يسمونها صفات المعاني، وكذلك الصفات السلبية أيضاً هي صفات قديمة عندهم، لكن هذا القدم إنما هو باعتبار الصلاحية فقط كما في كتاب «تحفة المريد»([56])، ولا نريد أن ندخل في هذه الإشكاليات الكلامية لأن مقصودنا التعليق المختصر على محاضرة الشيخ الشنقيطي رحمة الله عليه، فلنعد إلى كلامه.

قال المصنف رحمه الله:

ومن ذلك: أنه وصف نفسه جل وعلا بصفة الفعل التي هي أنه يرزق الخلق، قال جل وعلا: {ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٧، ٥٨]،

---

[54]) وانظر شرحنا لهذه القاعدة في " تيسير المنان في شرح القواعد الحسان للسعدي"، وهو تحت الطبع.

55) أقول: وليس الشيخ القيعي وحده هو الأزهري الذي يتبنى منهج السلف بل لو حصرنا أسماء القائلين بمنهج السلف المتبنين إياه لجمعنا في ذلك كتابا كبيرا، ولن نستطيع إحصاءهم؛ فليس من العدل والإنصاف ادعاء أن جميع علماء الأزهر أشاعرة.

56) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري صـ 124.

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: ٣٩]، {قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: ١١].

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق، قال: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ} [النساء: ٨]، {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا} [النساء: ٥]، {وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ} [البقرة: ٢٣٣]، ولا شك أن ما وُصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وُصف به منه المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق.

قال الشارح:

قوله: «ومن ذلك أنه وصف نفسه جل وعلا بصفة الفعل التي هي أنه يرزق الخلق»: (الرَّزق) عندهم صفة فعل، وهي عندنا أيضًا صفة فعل، لكن عندنا أن صفة الرَّزق قائمة بذات الله عز وجل واسمه الرزاق، والرازق سبحانه وتعالى.

أما عند هؤلاء فإن صفة الرزق، ومثلها صفات الخلق والرحمة ونحوها صفات فعل بمعني أنها عبارة عن تعلُّقات القدرة التنجيزيَّة الحادثة، فليست من صفات الله تعالى وإنما هي من آثار قدرته.

ولكن دعك من كلامهم ومن مصطلحاتهم، وتأمل ما ذكره المصنف لترى في نور القرآن كيف ذكرت هذه الصفات:

فهنا في هذه الآيات أثبت الله تعالى لنفسه صفة الرزق، وأثبتها كذلك للبشر، كما قال: {فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ}، {وارزقوهم فيها}، وذلك كأن تعطيهم مالا وأعطيات ورواتب وما شاكل ذلك، لكن الرزاق في الأصل هو رب العالمين سبحانه.

فاتصاف الخلق بصفة الرزق لا يعني المشابهة لرب العالمين سبحانه، فرب العالمين يوصف برزق يليق به، ونحن نتصف برزق يليق بنا؛ لأننا كلنا من رزق الله سبحانه وتعالى ونأكل من رزق الله سبحانه وتعالى، والرزق ليس هو المال فقط كما يظن بعض الناس، فهذا الهواء الذى نتنفسه رزق، وذاك الماء الذى نشربه رزق، وتلك الحياة التي نحياها رزق، وكذلك الأعمار التي أعطانا إياها رزق، فرزقه سبحانه وتعالى نتفيؤ في ظلاله، وأما

رَزقنا نحن فهو من باب قول الله تبارك وتعالى: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه}، فأنت وما تملك ملك لرب العالمين، فالصفة تختلف باختلاف المتصف بها.

قال المصنف رحمه الله:

وصف نفسه جل وعلا بصفة الفعل الذي هو العمل، قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} [يس ٧١].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل فقال: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٦]، ولا شك أن ما وُصف الله به من هذا الفعل مناف لما وُصف به المخلوق، مخالف له كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

ووصف نفسه بأنه يُعلِّم خلقه: {الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)} [الرحمن: ١- ٤]، {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)} [العلق: ٣ – ٥]، {وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} [النساء: ١١٣].

ووصف بعض خلقه بصفة الفعل التي هي التعليم أيضاً. قال: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} [الجمعة: ٢]، وجمع المثالين في قوله: {تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ} [المائدة: ٤].

قال الشارح:

تنبه أيها القارئ الكريم لكون هذه الصفات صفات أفعال؛ لأنهم جعلوها أثرًا من آثار القدرة والإرادة فقط، لا صفة قائمة بذات الله! لكنها في القرآن، وفي السنة، وفي المعقول، وفي اللغة صفات قائمة بالمتصف بها، سواء كان ربَّ العالمين -على الوجه الذي يليق به- أو المخلوق -على الوجه الذي يليق به-.

وساق المؤلف هنا آيات دالة على وصف الله عز وجل بصفة العمل والتعليم، وكذلك وصف بعض خلقه بهما، وكلاهما من صفات الأفعال:

قال الله: {الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ} وقال: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}: فرب العالمين يُعَلِّم، والنبي صلى الله عليه وسلم يُعَلِّم، ولكن بين التعليمين فارق كما بين الذاتين.

قوله: «وجمع المثالين في قوله: {تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ}»: أي أنت إنما تُعلِّم مما علَّمك الله، وهذا ليس مثالًا لجمع المثالين فحسب، بل فيه بيان الفرق بين تعليمك وبين تعليم رب العالمين، وأن تعليمك أثر من تعليم رب العالمين، كما أن رَزْقَكَ حينما ترزق أحدًا يكون أثَرًا من رَزْقِ الله عز وجل إياك.

قال المصنف رحمه الله: «ووصف نفسه بأنه ينبئ، ووصف المخلوق بأنه ينبئ، وجمع بين الفعل([57]) في الأمرين في قوله جل وعلا: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: ٣]، ولا شك أن ما وُصِف الله به من هذا الفعل مخالف لما وُصف به منه العبد كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.»

قال الشارح:

قوله: «وجمع بين الفعل»: يعني صفة الفعل.

وفي آية التحريم نسب سبحانه الإنباء للمخلوق، كما نسب الإنباء لرب العالمين سبحانه وتعالى.

فحينما أقف على وصفٍ وُصف به رب العالمين أيَّ وصفٍ كان سواء كان صفةَ فعلٍ أو صفةَ ذاتٍ أو صفةً إضافيةً، فإنه لا ينبغي أن يتبادر إلى ذهني أصلاً قضية المشابهة؛ لأنه وُصِفَ بها من ليس كمثله شيء، فكيف يتبادر إلى ذهني مسألة المماثلة حتى أسعى إلى التعطيل، ثم التحريف بحجة أنني لا أصف رب العالمين بما يتبادر إلى الأذهان من التشبيه أو التجسيم أو التمثيل، وحتى يكون من أثبت صفات رب العالمين الموجودة بكثرة في الكتاب والسنة مجسماً ومشبهاً وممثلاً، ألا شاهت الوجوه.

---

[57]) في نسخة عالم الفوائد: (وجمع بين الصفة الفعل في الأمرين...) ولعل الصواب: (صفة الفعل)، أو (الفعل) بدون كلمة الصفة وهو ما أثبتناه كما في نسخة الجامعة الإسلامية، والدار السلفية، والسنة: (وجمع بين الفعل في الأمرين...).

قال المصنف رحمه الله:

«ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء، قال جل وعلا: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ} [البقرة: ٢٦٩]، {وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ} [هود: ٣]. ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: {وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا} [النساء: ٢٠]، {وءاتوا النساء صدقتهن نحلة} [النساء: ٤]، ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.»

قال الشارح:

فالإيتاء صفة لله، وكذلك وُصف به المخلوق، ومع ذلك فالفرق بين الصفتين كالفرق بين الخالق والمخلوق.

[خامسا: الصفات الجامعة]

قال المصنف رحمه الله:

[الصفات الجامعة]

ثم نتكلم على الصفات الجامعة: كالعُلُوّ، والعَظم، والكِبَر، والمُلْك، والتكبر، والجبروت، والعزة، والقوة، وما جرى مجرى ذلك من الصفات الجامعة.

فنجد الله وصف نفسه بالعلو والكِبَر والعِظَم، قال في وصف نفسه بالعلو والعظم: {ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم} [البقرة: ٢٥٥]، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: {إن الله كان علياً كبيرا} [النساء: ٣٤]، {علم الغيب والشهدة الكبير المتعال} [الرعد: ٩].

ووصف بعض المخلوقين بالعظم قال: {فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم} [الشعراء: ٦٣]، {إنكم تقولون قولاً عظيما} [الإسراء: ٤٠]، {ولها عرش عظيم} [النمل: ٢٣]، ووصف بعض المخلوقين بالعلو قال: {ورفعنه مكاناً علياً} [مريم: 57]، {وجعلنا لهم لسان صدق عليا} [مريم: ٥٠].([58])

([58]) قال محقق ط. عالم الفوائد : أقحم في المطبوعات هذا التكميل: ووصف بعض المخلوقات بالكبر فقال {لهم مغفرة وأجر كبير} [هود: ١١]، وقال: {بل فعله كبيرهم هذا} [الأنبياء: ٦٣].

ولا شك أن ما وُصف الله به من هذه الصفات الجامعة، كالعلو والكبر والعظم مناف لما وُصف به المخلوق منها، كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذات المخلوق، فلا مناسبة بين ذات الخالق والمخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق والمخلوق.

قال الشارح:

بعد أن تكلم عن صفات المعاني، والصفات المعنوية عند القائلين بالحال -بالأحوال البهشمية-، وصفات الأفعال والصفات السلبية، شرع رحمه الله في الكلام عن الصفات الجامعة.

والصفات الجامعة عند الأشاعرة: هي عبارة عن كل صفة تدل على معنى يندرج فيه سائر الأقسام الخمسة المذكورة.

كل الأقسام -المعاني والمعنوية والفعلية والسلبية والنفسية- موجودة في هذه الصفات الجامعة، فهي صفات تدل على العظمة والكبرياء، وسميت جامعة لأنه لا يتصف بها إلا من جمع هذه الصفات، فهي تدل على صفات متعددة لله عز وجل.

قوله: "ولا شك أن ما وُصف الله به من هذه الصفات الجامعة، كالعلو والكبر والعظم مناف لما وُصف به المخلوق منها، كمخالفة ذات الخالق جل وعلا لذات المخلوق":

إن العلو صفة ذاتية لله عز وجل، فله سبحانه علو الذات، وعلو القدر والشأن، وعلو القهر والغلبة، له العلو بكل معانيه سبحانه وتعالى، ولكن العلو عند الأشاعرة هو علو القهر والقدر فقط، أما علو الذات فينفونه ولا يثبتونه فرارا من التشبيه في ظنهم، ولو تأملوا لعلموا أنهم وقعوا فيما فروا منه أو أشد في الضلال، فقد فروا من التشبيه فوقعوا في التعطيل والتحريف، وما عطل معطل صفة لله تعالى إلا بعد وقوعه في التشبيه فلما وقع ذلك في قلبه سارع إلى التعطيل.

فأين علو المخلوق من علو الخالق سبحانه، وأين العظمة من العظمة، أين الكبر من الكبر، ولذلك نفى رب العالمين أن يكون لأحد من خلقه صفة الكبرياء بحق، ولذلك فإن الإنسان المتكبر الذي يصف نفسه بأنه متكبر أو يرى نفسه متكبرًا فإنه كاذبٌ فيما ادعاه، وإن وُصِفَ بهذا فإنه ليس وصفاً حقيقياً، وإنما هو تعالٍ وتكبُّرٌ في داخل الإنسان، وهو ليس بممكن أصلاً، ولذلك كان الكبرياء رداء رب العالمين، وكانت العظمة

إزاره سبحانه وتعالى، فمن أراد أن ينازع رب العالمين في هاتين الصفتين أدخله ربُّ العالمين النار كما جاء في الحديث القدسي.([59])

قال المصنف رحمه الله:

وصف نفسه بالملك، قال: {يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس} [الجمعة: ١]، {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس} [الحشر: ٢٣]، {في مقعد صدق عند مليك مقتدر} [القمر: ٥٥].

ووصف بعض المخلوقين بالملك، قال: {وقال الملك إني أرى سبع بقرت سمان} [يوسف: ٤٣]، {وقال الملك ائتوني به} [يوسف: ٥٠]، {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا} [الكهف: ٧٩]، {تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء] [آل عمران: ٢٦]، ولا شك أن لله جل وعلا ملكاً حقيقيًّا لائقاً بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين ملكاً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

قال الشارح:

هل ملك الله كملك الإنسان الذى آتاه الله عز وجل الملك امتحاناً وابتلاءً وعاريةً، هذا الملك يعد عارية، ولذلك قال في الحديث: «**أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُلٍ كَانَ يُسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَلِكَ إِلَّا اللهُ**»([60])، الملك الحقيقي هو رب العالمين سبحانه، فالإنسان لا يملك على الحقيقة، حتى وإن ملكنا فهذه الأمور تعد عارية في الدنيا، كما قال: {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه}، فملكنا للأشياء ملك عارية، وملك استخلاف، ولذلك حينما قال: {أو ما ملكتم مفاتحه}، ملكّكم الله عز وجل ذلك، لكن حقيقة الأمر كما قال: {و لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم}، هذه أمور كان قد خولنا الله عز وجل إياها، لكن حقيقة الأمر أنها ملك لرب العالمين سبحانه وتعالى؛ ولذا يقول الله يوم القيامة {لمن الملك اليوم لله الواحد القهار}

---

[59]) سيأتي لفظ الحديث وتخريجه.

([60]) أخرجه أحمد (508/13)، ومسلم (2143)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال المصنف رحمه الله:

وصف نفسه بأنه جَبَّار مُتكبِّرٌ في قوله: {هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر} [الحشر: ٢٣]، ووصف بعض المخلوقين بأنه جَبَّار مُتكبِّرٌ قال: {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار} [غافر: ٣٥] ، {وإذا بطشتم بطشتم جبارين} [الشعراء: ١٣٠]، {أليس في جهنم مثوى للمتكبرين} [الزمر: ٦٠]، {واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد} [إبراهيم: ١٥].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مناف لما وصف به المخلوق، كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.

قال الشارح:

لم يصف الله أحداً بالتكبر أو التجبر على سبيل المدح أبداً؛ لأن العبد منهي عن ذلك، كما جاء في الحديث القدسي «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِزَّةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أُلْقِهِ فِي النَّارِ**»([61]).

وقد وصف الله فرعون بأنه متكبر جبار كما في قوله: {كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار}، وفرعون هذا قد انتهى أمره منذ آلاف السنين، ولا يذكر اسمه إلا مقرونًا باللعنات، بل قد اختلف الناس: أين قبره أو أين جثمانه، فصار الآن نكرة النكرات؛ فأين هو الآن وقد كان في الأرض متكبرًا متجبرًا؟ قد انتهى أمره منذ آلاف السنين، وبقي رب العالمين الملك الجبار المتكبر سبحانه وتعالى، فأين التكبر من التكبر؟ وأين التجبر من التجبر؟ وأين الملك من الملك؟ فملكه لا ينفد سبحانه وتعالى، كما قال سبحانه {ما عندكم ينفد وما عند الله باق} وقال {إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون}.

قال المصنف رحمه الله:

وصف نفسه جل وعلا بالعِزَّة، قال: {إن الله عزيز حكيم} [البقرة: ٢٢٠]، {أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب} [ص: ٩].

([61]) أخرجه أحمد (337/12)، وأبو داود (4090)، وابن ماجه (4174) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الجامع» (4311).

ووصف بعض المخلوقين بالعزة، {قالت امرأت العزيز} [يوسف: ٥١]، {وعزني في الخطاب} [ص: ٢٣]، وجمع المثالين في قوله: {ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين} [المنافقون: ٨]، ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

قال الشارح:

بل قال الله تعالى في سورة فاطر: {من كان يريد العزة فالله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه}، إذن فمن كان يريد العزة فليطلب العزة من الله، فربُّ العزة هو من تطلب منه العزة سبحانه وتعالى، وقال تعالى {سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين}، وجاء في إثبات صفة العزة لله تعالى أحاديث كثيرة، وأثبت الله لبعض عباده العزة كما في قوله{قالت امرأة العزيز} وقال إخوة يوسف{يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر...}، والفرق بين العزة والعزة كالفرق بين الذات والذات؛ فالله تعالى هو العزيزُ الذي له جميعُ معاني العِزَّةِ على وجهِ الكمالِ التَّامّ مِن كلِّ وَجهٍ: عِزَّةُ القُوَّةِ، وعِزَّةُ الامتناعِ، وعِزَّةُ القَهرِ والغَلَبَةِ؛ أما الخلق فليس لهم من العزة إلا بقدر ما يعزهم الله تعالى وبما يلائم حالهم وفناءهم، فمهما بلغوا في العزة فإنهم في فقر ذاتي لله تعالى فجميعُ الخلقِ في غايةِ الذُّلِ، ونهايةِ الفقرِ، ومنتهى الحاجةِ والضَّرورةِ إلى ربِّهم، وهو سبحانه يعزُّ من يشاء ويذلُّ من يشاء كما قال تعالى{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. +

قال المصنف رحمه الله:

وصف نفسه جل وعلا بالقوة، قال: {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} [الذاريات: ٥٧،٥٨]، {ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز} [الحج: ٤٠].

ووصف بعض المخلوقين بالقوة {ويزدكم قوة إلى قوتكم} [هود: ٥٢]. وفي قوله جل وعلا: {الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة} [الروم: ٥٤]، وجمع بين المثالين في قوله: {فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بأيتنا يجحدون} [فصلت: ١٥].

قال الشارح:

بين الله عز وجل في آية الذاريات أنه غنيٌّ عن عباده، فليس شأن ربنا سبحانه مع عباده كشأن ملاك العبيد مع عبيدهم حيث كانوا يستعينون بهم في إطعامهم وتحصيل معايشهم وأرزاقهم؛ فكان الواحد من هؤلاء السادة يُسَرّحُ عبيده للعمل ليأكل من أثر كسبهم، فقال سبحانه: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون} أي فقط، {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون} أي: لا من أجل أن يتكسبوا فيرزقوني أو يطعموني، فأنا الذي أرزقهم وأطعمهم، فشأني ليس كشأن ملاك العبيد مع عبيدهم.

وقد وجدنا بعض هؤلاء السادة يزج بعبيده وإمائه للعمل في مهنٍ قذرةٍ من أجل تحصيل الكسب والمال، فهذا عبد الله بن أبي ابن سلول كان يأمر جواريه أن يعملن في البغاء –والعياذ بالله– من أجل تحصيل المال، وكان منهن من تَكره ذلك وتُريدُ العَفاف، وفي ذلك نزل قول الله جل وعلا: {ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا}، سبحان الله! كيف يكون عندك رجولة وشهامة بل وتريد أن تكون سيداً على المدينة وملكًا عليها وأنت تأمر فتياتك بالعمل في تلك المهن القذرة من أجل أن تأكل سُحتاً، وهن يردن الإحصان والعفاف، قال تعالى: {إن أردن تحصنا} وهذا الشرط لا مفهوم له، وإنما الغرض من الآيات النعي على ابن سلول وأمثاله ممن كانوا يتكسبون من البغاء والعياذ بالله، فرب العالمين يبين أن السادة في الدنيا يتكسبون من أعمال عبيدهم فيصبح العبد هو من يرزق سيده أي يأتي بالمال كي يعطيه لسيده، فقال سبحانه: {ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} سبحانه وتعالى فهو الغني عن جميع خلقه.

قوله: {ويزدكم قوة إلى قوتكم} نزلت في عاد قوم هود؛ أي {يزدكم قوة إلى قوتكم} إن أنتم استغفرتم وتبتم وآمنتم بالله رب العالمين وحده لا شريك له.

وأثبت لهم القوة كما في آية فصلت لكن القوة غير القوة؛ فقوة الله عز وجل تليق به سبحانه، وقوة هؤلاء تليق بالمخلوق الفاني العاجز الضعيف الذي سيتحول بعد إلى تراب.

[سادساً: الصفة النفسية]

قلت (الشارح):

بقي الكلام عن القسم السادس من الصفات عند الأشاعرة ألا وهي: الصفة النفسية: فقد أغفل المصنف ذكرها هنا، وقد تناولها بالحديث في تفسيره لسورة الأعراف، ويقصد الأشاعرة بها: الوجود –على نزاع بينهم– هل الوجود هو الموجود ذاته؟ أو هو قدر زائد على الموجود؟ **واختار جمهورهم القول بأنها صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على الذات نفسها دون معنى زائد عليها.**

قالوا: وسميت كذلك لأن الذات لا تُعقَلُ إلا بها، فلا تُعقَل نفسٌ بدونها وهي صفة الوجود، والمراد بالصفات النفسية: ما لا يحتاج في وصف الشيء به إلى تَعَقُّلِ أمرٍ زائدٍ عليه كالإنسانية والحقيقة والوجود والشيئية للإنسان، وتقابلها الصفات المعنوية التي تحتاج في الوصف بها إلى تعقل أمر زائد على ذات الموصوف كالتحيُّزِ والحدوث، وبعبارة أخرى: **الصفة النفسية: هي التي تدل على الذات دون معنى زائد عليها، والمعنوية ما تدل على معنى زائد على الذات.**

وقولهم: "صفة": جنس في التعريف.

وقولهم: "ثبوتية": لإخراج الصفات السلبية كالقدم والبقاء.

وقولهم: "يدل الوصف بها على الذات نفسها": أي إنها لا تدل على شيء زائد على الذات.

وقولهم: "دون معنى زائد عليها": تفسير مراد لقولنا (على الذات نفسها) ويخرج بذلك المعاني لأنها تدل على معنى زائد على الذات، وكذلك (المعنوية) فإنها تستلزم المعاني فهي تدل على معنى زائد على الذات لاستلزامها المعاني.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تفسير سورة الأعراف من "أضواء البيان":

" وَلَا يَخْفَى عَلَى عَالِمٍ بِالْقَوَانِينِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْمَنْطِقِيَّةِ أَنَّ إِطْلَاقَ النَّفْسِيَّةِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ ، وَأَنَّ فِيهِ مِنَ الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَصْدُهُمْ بِالنَّفْسِيَّةِ فِي حَقِّ اللَّهِ الْوُجُودَ فَقَطْ وَهُوَ صَحِيحٌ ; لِأَنَّ الْإِطْلَاقَ الْمُوهِمَ لِلْمَحْذُورِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى لَا يَجُوزُ ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهِ صَحِيحًا ; لِأَنَّ الصِّفَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي الِاصْطِلَاحِ لَا تَكُونُ إِلَّا جِنْسًا أَوْ فَصْلًا ، فَالْجِنْسُ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ ، وَالْفَصْلُ كَالنُّطْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْجِنْسَ فِي الِاصْطِلَاحِ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةِ الْحَقَائِقِ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَالْفَرَسِ وَالْحِمَارِ ، وَأَنَّ الْفَصْلَ صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ لِبَعْضِ أَفْرَادِ الْجِنْسِ يَنْفَصِلُ

بِهَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْرَادِ الْمُشَارِكَةِ لَهُ فِي الْجِنْسِ كَالنُّطْقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ ، فَإِنَّهُ صِفَتُهُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَفْصِلُهُ عَنِ الْفَرَسِ مَثَلًا الْمُشَارِكِ لَهُ فِي الْجَوْهَرِيَّةِ وَالْجِسْمِيَّةِ وَالنَّمَائِيَّةِ وَالْحَسَاسِيَّةِ ، وَوَصْفُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِشَيْءٍ يُرَادُ بِهِ اصْطِلَاحًا مَا بَيَّنَّا لَكَ ; مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا تَرَى ; لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اشْتِرَاكٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَاتِهِ ، وَلَا مِنْ صِفَاتِهِ ، حَتَّى يُطْلَقَ عَلَيْهِ مَا يُطْلَقُ عَلَى الْجِنْسِ وَالْفَصْلِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا لِأَنَّ الْجِنْسَ قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ حَقَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ، وَالْفَصْلَ : هُوَ الَّذِي يَفْصِلُ بَعْضَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي الْجِنْسِ عَنْ بَعْضٍ، سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا"

ثم قال رحمه الله: "وَأَمَّا الصِّفَةُ النَّفْسِيَّةُ عِنْدَهُمْ فَهِيَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ: الْوُجُودُ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا فِي إِطْلَاقِهَا عَلَى اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْوُجُودَ عَيْنَ الذَّاتِ فَلَمْ يَعُدَّهُ صِفَةً، كَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَلَا يَخْفَى أَنَّ الْخَالِقَ مَوْجُودٌ، وَالْمَخْلُوقَ مَوْجُودٌ، وَوُجُودُ الْخَالِقِ يُنَافِي وُجُودَ الْمَخْلُوقِ".

[الصفات التي اختلف فيها المتكلمون]

قال المصنف رحمه الله:

ثم إننا نتكلم على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون، هل هي صفات فعل أو صفات معنى، والتحقيق أنها صفاتُ معانٍ قائمةٌ بذات الله جل وعلا، كالرأفة والرحمة والحلم.

فنجده جل وعلا وصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال {إن ربكم لرءوف رحيم} [النحل: ٧]، ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال في نبينا صلى الله عليه وسلم: {لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم} [التوبة: ١٢٨].

وصف نفسه بالحلم، قال: {ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم} [الحج: ٥٩]، {واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم} [البقرة: ٢٣٥]، {قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم} [البقرة: ٢٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بالحلم، فقال: {فبشرنه بغلم حليم} [الصافات: ١٠١]، {إن إبراهيم لأوه حليم} [التوبة: ١١٤].

وصف نفسه بالمغفرة قال: {إن الله غفور رحيم} [البقرة: ١٧٣]، {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} [البقرة: ٢٨٤]، ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة، قال: {ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور} [الشورى: ٤٣]، {قول معروف ومغفرة...} [البقرة: ٢٦٣]، {قل للذين ءامنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله} [الجاثية: ١٤]، ولا شك أن ما وُصف به خالق السماوات والأرض من هذه الصفات أنه حق لائق بكماله وجلاله لا يجوز أن يُنفَى خوفاً من التشبيه بالخلق، وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

قال الشارح:

اعلم أن الأشاعرة ليسوا على مذهب واحد أو قول واحد، بل إن أقوالهم متعددة؛ فمثلًا منهم من يثبت الحال المعنوية ومنهم من ينفيه وبناء على ذلك وجدنا بعضهم يثبت الصفات المعنوية الآخرين ينفونها، ومنهم من يجعل القرآن حكاية عن كلام الله ومنهم من يجعله عبارة عن كلام الله، ومنهم من يجعل الوجود عين الذات فلا يعدُّه صفةً كأبي الحسن الأشعري ومنهم من يجعله صفة زائدة على الذات، وصدق الله إذ يقول: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا}، فلما وجدنا هذه الخلافات عند المتكلمين علمنا أنها ليست من عند الله، لكن عقيدة السلف –عقيدة القرآن والسنة– لا خلاف فيها؛ فتجد الآخِرِين يقولون بما يقول به الأوَّلُون، والقضية ليست تقليدًا أعمى، وإنما هو اعتقاد القرآن والسنة المطهرة.

وسيتكلم الشيخ هنا عن الصفات التي اختلفوا فيها، وهي صفات جاءت في الكتاب والسنة، ووصف الله بها بعض خلقه فبادر المعطلة إلى إنكارها وتحريفها، أما نحن فلا يتبادر إلى أذهاننا ولا إلى قلوبنا ولا إلى عقولنا أن الصفة المنسوبة لله فيها تمثيل أو تشبيه؛ لأن الله له صفات الكمال التي تليق به وله الكمال في تلك الصفات سبحانه وتعالى، وكما أننا لا نمثل ذات الله بذوات المخلوقين، فكذلك لا نمثل صفات الله عز وجل بصفات المخلوقين، فلا يتبادر أصلاً إلى أذهاننا أو إلى قلوبنا قضية المشابهة حتى نفرَّ منها.

فنجد أن الله وصف نفسه بالحلم ووصف المخلوق بالحلم، فهل حلمه كحلم المخلوق، كذلك وصف نفسه بالرأفة والرحمة ووصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرحمة، فهل رحمته ورأفته كرحمة النبي أو كرحمة المخلوقين؟ وكذلك الشأن في صفة المغفرة، فقد وصف نفسه بالمغفرة وأنه يغفر لمن يشاء سبحانه، ووصف

بعض خلقه بالمغفرة وحضَّهم على التحلي بها، فهل مغفرة الربِّ سبحانه كمغفرة المخلوق؟ هذا أمر يستحيل؛ لاستحالة مشابهة المخلوق للخالق أو مشابهة الخالق للمخلوق.

قال المصنف رحمه الله:

وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطع إلى وصف أثبته الله جل وعلا لنفسه، فينفي هذا الوصف عن الله متهجماً على رب السماوات والأرض، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به أنه لا يليق به، وأنه هو ينفيه عنه ويأتيه بالكمال من كيسه الخاص فهذا جنون وهوس، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم.

قال الشارح:

تأمل لتعرف خطورة المسألة، وأنها ليست بالأمر الهين، فليس الأمر متعلقًا بالمسائل الفرعية كالخلاف في بول الصبي وهل هو نجس أو طاهر، أو نقض الوضوء من أكل لحم الإبل، أو الاختلاف في وجه المرأة هل عورة أو لا، بل إن الأمر أخطر من ذلك وأعظم، إنكم تتكلمون عن صفات الله رب العالمين خالق السماوات والأرضين، فالأمر جلل وعظيم؛ لأنه يتعلق بالتوحيد الذي هو أساس الدين.

فكيف يُسَوِّغُ عبدٌ لنفسه أن يأتي على وصف أثبته الله جل وعلا لنفسه فينفي هذا الوصف عن الله متهجمًا على رب السماوات والأرض، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به -أي مدح نفسه به- أنه لا يليق به سبحانه.

كأنه يقول: يا رب هذا لا يليق بك، فكيف وصفت نفسك بهذا، يا رب ينبغي عليك أن تنفى هذا الوصف عن نفسك، وإن لم تنفه أنت فسأنفيه أنا، سبحان الله {تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا}، هذا كلام خطير جدًّا أن تأتى متهجماً على كلام قاله رب العالمين في القرآن الكريم وأثبته لنفسه سبحانه وتعالى؛ فتتهجم عليه وتتنطع وتقول: هذا الوصف لا يليق برب العالمين، وأنا متطوع متهجم سأصلح هذا الخطأ! أو تقول: لن أترك هذه الآية بدون أن أصف الرب بالوصف الذي كان ينبغي عليه أن يصف به نفسه، فسأنفى الوصف الذي وصف به نفسه؛ لأنه وصف يفيد التشبيه، وليس فيه مدح، بل فيه قدحٌ، وأنا اكتشفت هذا؛ وبناء عليه فسأنفيه عن الله، وأثبت أنا -بنفسي- لله من الصفات ما كان ينبغي على الله أن يثبته.

هذا لازم الكلام ومؤداه، وهو أمر خطير جدًّا فهذا تكَبُّرٌ عظيمٌ إذ يتهجَّمُ صاحبُ علم الكلام على ربِّه فينفي عن الله ما أثبته لنفسه مدعيا أنه يقتضي التشبيه.

قال: «فهذا جنون وهوس، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم»: وسبق أن ذكرت لكم لماذا اتهمهم المصنف بالجنون؛ لأن هذا الإنسان لو كان عاقلا لَوَضَعَ عقلَه بالمكان اللائق به ولما تهجم هذا التهجم وقال مثل هذا في حق خالق السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله:

وسنضرب لكم لهذا مثالاً يتبين به الكل، لأن مثالاً واحداً من آيات الصفات ينسحب على الجميع، إذ لا فرق بين الصفات؛ لأن الموصوف بها واحد وهو جل وعلا لا يشبهه شيء [من خلقه](62) في شيء من صفاته ألبتة.

قال الشارح:

يضرب المصنف هنا مثالًا لما تهجم فيه المتنطِّعون وَنَفَوَا عن الله وصفًا وصف به نفسَه في القرآن الكريم في عدة مواضع، بل في سبعة مواضع، ثم بعد ذلك قاموا بوضع وصف آخر ظنوه الأليق والأفضل والأكمل لله عز وجل، وهو قضية الاستواء على العرش.

وهذا الكلام الذي ذكره سيكون قاعدة في جميع الصفات وإلا فلا يليق أن نأتي على وصفٍ لله فننفيه ونأتي على وصفٍ آخر فنثبته، فما يتوافق مع أهوائنا نقبله وما لا يتوافق مع أهوائنا نرفضه ونقول: هذا فيه تشبيه وتمثيل لله بخلقه، كلا، إذ هذا تحكُّمٌ لا ينبغي في صفات رب العالمين؛ فإن القول في الصفات واحد؛ فإما أن تثبت جميع الصفات التي جاءت في القرآن والسنة على ما يليق بالله تعالى فتوافق منهج السلف، وإما أن تنفى الجميع فتكون مع الجهمية.

---

62) ليست موجودة بالأصل الصوتي، ولعلها أضيفت بالمطبوع ليتسق الكلام ويتضح.

قال المصنف رحمه الله:

فهذه صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض، ونفاها كثير من الناس بأقيسة منطقية، وأدلة جدلية سنتكلم في آخر البحث على وجوه إبطالها كلاماً يخص الذين درسوا المنطق والجدال، ليتبين كيف استدل أولئك بالباطل، وأبطلوا به الحق، وأحقوا به الباطل.

فهذه صفة الاستواء تجرأ الآلاف ممن يدَّعون الإسلام ونفَوها عن رب السماوات والأرض بأدلة منطقية، يركبون فيها قياساً استثنائياً مركباً من شرطيَّة متصلة لزوميَّة ([63])، يستثنون فيه نقيض التالي، يُنتِجون في زعمهم الباطل نقيضَ المقدَّم، بناءً على أن نفي اللازم يقتضي نفي الملزوم.

فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه –والعرش مخلوق– لكان مشابهاً للخلق في استوائه على العرش، [لكنه لم يكن مشابها للخلق، فينتجون: ليس مستويا على العرش، وعَظُمَ هذا الافتراءُ كما ترى]([64]).

قال الشارح:

أشار الشيخ هنا إلى أنه سيناقش في آخر المحاضرة هؤلاء المتكلمين بأسلوب الجدل والمنطق الأرسطي ليتبينوا بأنفسهم كيف استدلوا بالباطل وأبطلوا به الحق، وأحقوا به الباطل، والأصل أننا ينبغي ألا نذكر هذه القواعد الكلامية الفلسفية إلا للحاجة إليها مثل أن يكون الخصم لن يقتنع إلا بما أشربه من هذه القواعد ولن يلتفت إلى المتحدث إلا إذا استعمل هذه المصطلحات؛ فحينئذ يتوجب على من آتاه الله علما بهذا الشأن وتمكن منه أن يستعمله مستدلا به على إحقاق الحق وإبطال الباطل، كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رده على المتكلمين والفلاسفة وكذلك فعل الشيخ الشنقيطي هنا في هذه المحاضرة لأن الحاضرين كانوا من علماء الأزهر ممن تشربوا المنهج الكلامي.

ثم اعلم أن هذا القياس الذي أشار إليه الشيخ هنا هو القياس المنطقي لا القياس الأصولي الذي هو عبارة عن إلحاق الفرع بالأصل في الحكم لعلة جامعة بينهما.

---

[63]) والمعنى أنهم: (يركبون قياساً استثنائياً مركبا من مقدمة شرطية متصلة لزومية واستثناء يستثنون فيه نقيض التالي...إلخ)، وسيأتي تفصيل ذلك.

[64]) ما بين المعكوفين من في طبعة الجامعة الإسلامية والدار السلفية، وهي زيادة لازمة وبها يتم المعنى إذ الكلام بدونها غير تام إذ ينقصه ذكر الاستثناء والنتيجة.

أما هذا القياس المنطقي فإنهم يجعلونه مقدمتين: المقدمة الأولى هي المقدَّم، والمقدمة التالية هي التالي، فيركبونها بشرطية –يعنى جملة شرطية فيها أداة شرط–ثم يخرجون بنتيجة.

قوله «متصلة لزومية»: متصلة عكس منفصلة، وسنبين هذا الأمر في محله إن شاء الله، فلا تعجل.

وسيذكر لك المصنف القياس الذي ذكروه، ثم يذكر أدلة من القرآن في إثبات هذه الصفة، ثم بعد ذلك ينقض هذا الاستثناء أو القضية الشرطية الاستثنائية المتصلة اللزومية المركبة، فانتبه أيها القارئ اللبيب:

نبذة عن القياس الاستثنائي عند المناطقة:

تعريفه: هو القياس الذي تُذكر نتيجته في إحدى مقدمتيه إما بعينها وإما بنقيضها

مثاله:

كلما كان الماء جاريًا (المقدم)، كان الماء طاهرًا (التالي) + لكن هذا الماء جارٍ = فهو طاهر.

كلما كان الماء جاريًا (المقدم)، كان الماء طاهرًا (التالي) + لكن هذا الماء ليس طاهرًا = فهو ليس بجارٍ.

والخلاصة: أن استخلاص النتيجة هنا يتم:

1– باستثناء عين المقدم فينتج عنه عين التالي كما في المثال الأول.

2– أو باستثناء نقيض التالي فينتج عنه نقيض المقدم كما في المثال الثاني.

ولذا قال المصنف: «بناءً على أن نفى اللازم يقتضي نفي الملزوم»: فهذا أساس القياس اللزومي عندهم وهكذا بنوا المسألة ووصلوا من خلال ذلك للنتيجة المذكورة.

وقد استعملوا في مسألة الاستواء هذه الطريقة، للوصول إلى نفي الاستواء، وإنما ذكرنا هذه النبذة لتُعِينَنا على التطبيق وفهم المسألة جيدا وهي كما يلي:

قال: «فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه –والعرش مخلوق– لكان مشابهاً للخلق في استوائه على العرش، لكنه لم يكن مشابها للخلق، فينتجون: ليس مستويا على العرش»:

وبيان ذلك في ضوء ما سبق:

المقدم: "لو كان مستوياً على عرشه"

التالي: "لكان مشابهاً للخلق في استوائه على العرش"

أداة الاستثناء: "لكن" هذه هي أداة الاستثناء لذلك سمي قياسا استثنائيا لأنه يأتي بأداة الاستثناء

جملة الاستثناء: "لكنه لم يكن مشابهاً للخلق"

تكون النتيجة: فهو ليس مستوياً على العرش، فينتجون نقيض المقدم.

ولا شك أن هذا القياس فاسد، وإنما يلبسون به على العوام ومن لا دراية له به، وهنا أذكرك أيها القارئ بوصية الشيخ القيعي رحمه الله التي ذكرناها من قبل إذ يقول: لا تسلم بالمقدمات حتى لا تلزم بالنتيجة.

فإذا قال لك المعطل: "لو كان مستوياً على عرشه والعرش مخلوق لكان مشابهاً للخلق"

قل له: لا أُسلِّم لك بهذه المقدمة؛ وهذه المقدمة مشابهة لمقدمة أخرى عند نفاة الصفات تقول: "لو كان سميعاً بصيراً لكان مشابهاً للخلق، لكنه ليس مشابهاً للخلق، فينتج أنه ليس سميعاً بصيراً" فهل تقولون بهذا القول وتسلمون بهذا القياس؟

يقول: لا؛ وذلك لأن سمعه ليس كسمع المخلوق.

فقل له: واستوائه ليس كاستواء المخلوق، بل استواء الله مباين ومفارق ومخالف لاستواء المخلوق لأن استواءه يليق به واستواءنا يليق بنا، فلا تركب لي أدلة ومقدمات أنا أنازع فيها ولست مسلما لك بها، ولما تأتي بالمقدمة لابد أن تكون متيقنة ونكون جميعا مسلمين بها.

فإذا ذكر التالي فقال: "لكنه لم يكن مشابها للخلق"

قل له: نعم أنا معك في هذه.

فإذا أراد أن ينتج النتيجة قل له: أنا لم أسلم لك في المقدم لكونه مخالف للنص فهو قياس فاسد الاعتبار، وبالتالي نقضت لك القياس فلا ألزم بالنتيجة الباطلة المخالفة للنص، بل إني أرد عليك قياسك الفاسد.

قال المصنف رحمه الله:

أولًا: اعلموا أن هذه الصفة التي هي صفة الاستواء هي صفة كمال وجلال تمدح بها رب السماوات والأرض، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال: أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوباً بما يبهر العقول من صفة كماله وجلاله التي هي منه، وسنضرب لكم مثلاً لذلك بذكر الآيات:

قال الشارح:

فإن قال قائل: من أين علمتم أن صفة الاستواء صفة كمال وجلال؟

قلنا: علمنا ذلك من وصف الله بها لنفسه، والله لا يصف نفسه إلا بصفة كمال وجلال؛ إذ لا يُتصور أن يصف الله نفسه بصفة نقص أو صفة تدل على أنه سبحانه وتعالى مماثل لخلقه، فإن رب العالمين سبحانه لن يصف نفسه إلا بما يُتَمَدَّحُ به، ثم هو يُعلِّمنا كيف نمدحه وذلك بذكر الأسماء والصفات والأفعال التي تبين لنا عظمته وجلاله وكماله ومباينته للمخلوقات الناقصة.

قال المصنف رحمه الله:

١-فأول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء سورة الأعراف، قال: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾} [الأعراف: ٥٤]. فهل لأحد أن ينفي بعض هذه الصفات الدالة على الكمال والجلال.

٢- الموضع الثاني في سورة يونس، قال الله فيها: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (4) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)) [يونس: ٣-٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال؟!

قال الشارح:

قل لي بربك: من يماثل الله في شيء من هذا؟ خلق السماوات والأرض في ستة أيام وأتم خلقهن ثم استوى على العرش سبحانه وتعالى، فكيف يكون كل ما مضى وما سيأتي ذكره في الآيات صفات كمال وجلال باستثناء الاستواء؟! وقد ذكره الله في هذه الآية التي تتكلم عن كمال الله وجلاله وعظمته، وتدلل على وحدانيته سبحانه في ربوبيته وألوهيته، أفيُعقَلُ أن يَذكر لنا وسط هذه الصفات العظيمة صفة لا تليق به – بزعمهم– وهي صفة الاستواء ليتعكر هذا الجو الهائل من التعظيم والإجلال لله رب العالمين؟! سبحانك ربي هذا بهتان عظيم.

ولماذا الاستواء فقط هو الذي لم تستطيعوا أن تعقلوه من بين هذه الصفات والأفعال لله تعالى المذكورة في الآيات في سياق واحد للدلالة على كمال الله وجلاله وعظمته؟ وكيف يجرؤ مخلوق على نفي تلك الصفات عن الله تعالى؟!

قال المصنف رحمه الله:

٣– الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله جل وعلا: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صنوانٍ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، وفي القراءة الأخرى(65): {وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٢-٤]، فهل لأحدٍ أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال و الكمال؟!.

قال الشارح:

---

(65) قلت: وللأسف ضبطت القراءة الأخرى في نسخة «عالم الفوائد» و«مكتبة السنة» خطأ، إذ ضبطت القراءتان بالرفع على ما هو معلوم من قراءة حفص عن عاصم، وبعض الطبعات الأخرى لم تضبط القراءة الثانية مطلقا، والتحقيق العلمي يستوجب الرجوع للمصادر من كتب القراءات المعتمدة، وانظر: «السبعة في القراءات لابن مجاهد» (1/ 456)، و«التيسير لأبي عمر الداني» (1/ 93)، و«النشر في القراءات العشر لابن الجزري» (2/ 334).

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم بالرفع في الكلمات الأربع: {وزرعٌ} {ونخيلٌ} {صنوانٌ} {وغيرُ}، ووجه الرفع: كونها معطوفة على {قطعٌ متجاوراتٌ وجناتٌ} أي في الأرض قطع متجاورات وفيها جنات، وفيها زرع ونخيل... إلى آخره.

وقرأ نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر شعبة عن عاصم بخفض الكلمات الأربعة {وزرعٍ} {ونخيلٍ} {صنوانٍ} {وغيرِ}، ووجه الخفض كونها معطوفة على قوله: {من أعنابٍ} أي جناتٌ من أعنابٍ ومن زرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغيرِ صنوانٍ.

ولا خلاف في خفض {صنوانٍ} الثاني لإضافة {وغير} إليه.

وقرأ عاصم وابن عامر {يُسقى} على التذكير؛ أي: ما قصصناه عليكم يسقى {بماء واحد}، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي {تُسقى} بالتاء، فمن قرأها بالتاء ذهب إلى تأنيث الزرع والجنَّات والنخيل، ومن قرأ بالياء ذهب إلى المعنى وهو النبت، أي وذلك كله يسقى بماء واحد.

وقوله تعالى: {في الأُكل} قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف، وقرأ الباقون بضمها.

قال المصنف رحمه الله:

٤- الموضع الرابع في سورة طه: {طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه: ١-٨]، فهل لأحد أن ينفى شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الجلال و الكمال؟!

٥- الموضع الخامس في سورة الفرقان، في قوله: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59)} [الفرقان: ٥٨، ٥٩]. فهل لأحد أن ينفى شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من الكمال والجلال؟!

قال الشارح:

قول الله تعالى {فاسأل به خبيرا}

يعني لا تسأل إلا الخبير، فكيف يليق بغير الخبير أن يتهجَّم ويتجنى وأن يتنطَّع ويستدرك على الخبير سبحانه وتعالى ويقول: كان ينبغي أن تقول: ثم استولى على العرش، وليس: "استوى".

قال المصنف رحمه الله:

٦- الموضع السادس في سورة السجدة في قوله جل وعلا: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (4) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)} [السجدة: ٣ – ٩]، فهل لأحد أن ينفى شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا من غايات الكمال والجلال؟!

٧- الموضع السابع في سورة الحديد في قوله: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٣،٤].

فالشاهد أن هذه الصفات التي يظن الجاهلون أنها صفة نقص، ويتهجمون على رب السماوات والأرض بأنه وصف نفسه صفة نقص، ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله جل وعلا تمدح بها وجعلها من صفات الكمال والجلال، مقرونة بما يبهر العقول من صفات الكمال والجلال؛ هذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله جل وعلا بالتأويل.

قال الشارح:

هذا الكلام جعلني أتوجه توجهاً طيباً في هذا؛ وأن أقوم بجمع هذه الآيات الواردة في تلك المواطن السبعة وتفسيرها مجموعة في رسالةٍ لبيان عظمة الله عز وجل؛ لأن هذه الآيات آيات عجيبة، فمع الاستواء على العرش جاءت أمور تبين خلق الكون وعظمة الرب وتدبيره سبحانه لأمر الكون، وهي أمور خارقة، أمور ما كان أحد يعلمها قبل نزول القرآن الكريم، أمور عظيمة جدًّا احتفت بها تلك الآيات؛ ثم يأتي هؤلاء ليأخذوا هذه الكلمة من وسط هذه الآيات الواردة في تلك المواضع السبعة لينفوها عن الله عز وجل ويحرفوها إلى معنى الاستيلاء!

أربُّ العالمين الذي فعل كل ذلك كان عرشه مسلوباً فاستولى عليه سبحانه وتعالى وأخذه عنوة بعد أن لم يكن في ملكه! وممن أخذه؟ ومن كان مستوليًا على العرش قبل الرحمن سبحانه وتعالى؟!

الآيات تتحدث عن أمر آخر، وهو أن رب العالمين بعد أن خلق هذا العالم وأعده من أجل التكليف، ومن أجل ما أراده الله من هذه المخلوقات، استوى على عرشه سبحانه –وهو أعلى المخلوقات– ليدبر أمر المخلوقات وليراقبها ويحاسبها.

إن كان الملوك يجلسون على عروشهم ليديروا أمور الممالك؛ فإنَّ ربَّ العالمين سبحانه الحيُّ القيومُ الذى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نومٌ مستوٍ على العرش بائنٌ من الخلق سبحانه وتعالى يدبر الأمر، ولذلك تجدون كلمة التدبير تتكرر في كثير من هذه الآيات التي تحدثت عن استواء الرب سبحانه وتعالى على العرش، وليس استواؤه على العرش كاستواء الملوك على كراسيّ الحكم، وليس استواؤه كاستيلاء بِشْرٍ على العراق –تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا–، وليس استواؤه على العرش وتدبيره للأمر أو ملكه لما يملكه سبحانه كاستواء الملوك على عروشهم وتدبيرهم وتملكهم لممالكهم ولعبيدهم، فإن الأمر يختلف كاختلاف الخالق عن المخلوق وكاختلاف ذات الخالق عن ذوات المخلوقين، فكذلك أسماؤه وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله:

ثم اعلموا أن هذا الشيء الذي يقال له: التأويل، الذي فتن الله به الخلق، وأضلَّ به الآلاف المؤلفة من هذه الأمة، اعلموا أن التأويل يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

قال الشارح:

اعلم أن هؤلاء الذين حرفوا صفة الاستواء وبقية الصفات الأخرى إنما أُتوا من قِبل تَلَطُّخِ قلوبهم بأقذار التشبيه –كما سيأتي من كلام المصنف– فتوهَّموا أن هذه الصفات التي وصف الله بها نفسه موهمة للتشبيه، ثم ادعوا أنها من قبيل الظاهر لا من قبيل النص، وأن ظاهرها تشبيه الله عز وجل بخلقه، ومعاذ الله أن يصف الله عز وجل نفسه أو أن يصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بصفات فيها مشابهة للخلق؛ قال سبحانه: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، وقال: {ولم يكن له كفواً أحد}، وقال: {هل تعلم له سميًّا}، فبين الله عز وجل أنه سبحانه لا مثل له ولا كفؤ له، ولا سمي له؛ إذن معنى ذلك أن الله ربَّ العالمين لا يُماثِل خلقه على الإطلاق، ولا يتصور أن يصف الله عز وجل نفسه بصفة ظاهرها تشبيهه بالخلق، فلما لم يستقر ذلك في أذهانهم ولم تفقهه قلوبهم؛ فبمجرد أن سمعوا بعض آيات الصفات كقوله تعالى: {بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء}، وكقوله: {ولتصنع على عيني}، وكقوله: {الرحمن على العرش استوى} تَبَادَرَ إلى أذهانهم الكليلة وأفهامهم العليلة أن هذه الصفات ظاهرها تشبيه الله عز وجل بخلقه فنفوا ما تبادر إلى أذهانهم منها، ثم حملوها على خلاف ظواهرها، ثم عينوا المراد وحددوا المعنى المؤول، فقالوا اليد تعني القدرة، والعين تعني البصر، والاستواء يعني الاستيلاء، وهكذا.

فبدأوا مشبهين وانتهوا مشبهين وكانوا فيما بين ذلك معطلين، وسلكوا في ذلك مسلكًا خبيثًا إذ عمدوا إلى السُّنَّة فرَدُّوا خبرَ الواحد منها، بحجة أنه لا يفيد اليقين، وقالوا: لا يجوز الأخذ في الاعتقاد إلا باليقينيات، فردوا جملة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما ما لم يمكنهم رده من الأحاديث فعمدوا فيه إلى التأويل الذي هو في حقيقته تحريف، قال الدارمي في نقضه على بشر المريسي: «وَبَلَغَنَا أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ الْمَرِيسِيِّ قَالَ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْأَسَانِيدِ الْجِيَادِ الَّتِي يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَيْنَا فِي رَدِّ مَذَاهِبِنَا، مِمَّا لَا يُمْكِنُ التَّكْذِيبُ بِهَا؟ مِثْلَ: سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُور عَن الزُّهْرِيّ، وَالزهْرِيّ عَنْ سَالِمٍ، وَأَيُّوبَ، وَابْنُ عَوْنٍ، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ، وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا أَشْبَهَهَا؟ فَقَالَ الْمَرِيسِيُّ: لَا تَرُدُّوهُ فَتُفْتَضَحُوا، وَلَكِنْ غَالِطُوهُمْ بِالتَّأْوِيلِ فتكونوا قد رددتموها بلطف؛ إذ لم يُمْكِنُكُمْ رَدُّهَا بِعُنْفٍ»(66). وكذلك الحال بالنسبة لنصوص القرآن الكريم.

---

(66) «نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله عز وجل من التوحيد» للإمام عثمان بن سعيد الدارمي (267،268/2).

فركِبُوا -هداهم الله- مَركبَ التأويل ليردوا ما شاءوا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم مهما كانت صحيحة فأحدثوا في الإسلام بلاءً عظيمًا، حتى آل أمر الأمة إلى تفرُّقٍ واختلافٍ.

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»([67]): في بيان جناية التأويل على ما جاء به الرسول والفرق بين المردود منه والمقبول:

هذا وأصل بَلِيَّة الإسلام من ... تأويل ذي التحريف والبطلان

وهو الذي قد فرق السبعين بل ... زادت ثلاثا قول ذي البرهان

ثم قال بعدها بأبيات:

ولأجله قد قال جهم ليس ربْ ... بُ العرش خارج هذه الأكوان

كلا ولا فوق السماوات العلى ... والعرش من ربٍّ ولا رحمن

ما فوقها رب يطاع جباهنا ... تهوي له بسجود ذي خضعان

ولأجله جُحِدَت صفات كماله ... والعرش أخلَوْه من الرحمن

وتنبه يا طالب العلم إلى أن هؤلاء المتكلمين إذ يفرقون بين المتواتر والآحاد، وإذ يؤصلون لعدم الأخذ بالآحاد في باب الاعتقاد -تنبه إلى أنهم ليسوا على شيء في علم الحديث لا رواية ولا دراية، فهذا أحد عمدهم وهو أبو حامد الغزالي الذى أطلقوا عليه لقب «حُجَّة الإسلام» يقول هو عن نفسه: «أنا بضاعتي في علم الحديث مزجاة»، وكونه -غفر الله له- عكف قبل أن يموت على قراءة صحيحي البخاري ومسلم وتاب إلى الله عز وجل من خوضه في مسائل الكلام، هذا أمر آخر يُحمد له، لكننا نتحدث عن ذاك العلم والكلام الباطل الذى توارثته عنه الأجيال.

وهنا يرد سؤال: لماذا اختار أهل التحريف مصطلح «التأويل»؟

([67]) «النونية = الكافية الشافية» للإمام ابن القيم (111، 112).

والجواب: لأنهم وجدوا له أصلًا في كتاب الله وهو قوله سبحانه: {وما يعلم تأويله إلا الله}، فوجدوا فيه المخرج، فقالوا: إن مصطلح «التأويل» هذا مصطلح قرآني فلماذا لا نستخدمه؟ لأن البديل حينئذ سيكون مُحرِجاً لهم أشد الإحراج ألا وهو التحريف والتبديل؛ وهذه الألفاظ جاءت مذمومة في القرآن الكريم في معرض الحديث عن بلايا وطَوامّ أهل الكتاب، وهذه المصطلحات -أعني التحريف والتبديل- بهم ألصق وعلى فعلهم أدلُّ؛ لأنهم بدَّلوا النصوص وحرَّفوها عن مراد الشارع الحكيم.

فهؤلاء كان عندهم شيء من الذكاء العقلي، لكنهم كما قال شيخ الإسلام: «أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا»([68]).

ومع ذلك فقد انطلت بدعتهم على كثير من الناس، وظنوا أنهم هم المعنيُّون بقول الله تعالى: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم} وأن هؤلاء -المُحرِّفَة- هم الراسخون في العلم فعلموا التأويل، أما أهل الحديث فأهل ظاهر لا يعرفون من النصوص إلا ظواهرها، ولذلك أطلقوا على أهل الحديث لفظ «الحَشْوَيَّة» أي الذين ليست عندهم دراية ببواطن الأمور ولا بدقائق العلوم، وأنهم كمثل العوامّ الذين يأخذون الأمور بظواهرها، ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى: {بظاهر من القول}، فالحاصل: أنهم يستخدمون بعض المصطلحات القرآنية لتخدمهم في تلك البدعة الذميمة، فإلى الله المشتكى من جناية التأويل على الإسلام وأهله.

إطلاقات كلمة «التأويل» واستعمالاتها:

إذا نظرنا إلى كلمة «التأويل» نجد أنها من الألفاظ المجملة، فلا بد من معرفة معناها واستعمالاتها حتى نفهم قصد من يطلقها، فاللفظ المجمل قد يراد به حقٌّ فيكون حقًّا، وقد يراد به باطل فيكون باطلًا، وهذا يدلك على خطورة استعمال الألفاظ المجملة، قال ابن القيم رحمه الله: «أصل بلاء أكثر الناس من جهة الألفاظ المجملة التي تشتمل على حق وباطل فيطلقها من يريد حقها فينكرها من يريد باطلها فيرد عليه من يريد حقها وهذا باب إذا تأمله الذكي الفطن رأى منه عجائب وخلصه من ورطات تورط فيها أكثر الطوائف»([69]).

([68]) «مجموع الفتاوى» للإمام ابن تيمية (**119/5**).

([69]) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» للإمام ابن القيم (**126**).

وهذا حق فقد رأينا المبتدعة على مختلف طوائفهم إذ أرادوا أن يمرروا بدعة راوغوا باستخدام الألفاظ المجملة والمتشابهة. ولذلك فلا بد من تحديد المصطلحات.

وعليه فإنا نقول لمن تذرع بتلك المصطلحات: حدِّد لنا، ما المقصود بكلمة التأويل؟! حَدِّد لنا ما المقصود بكلمة الحَيِّز، أو بكلمة الجسم والجهة، أو بكلمة جنس العمل، وما شابه من هذه الألفاظ.

فإن قال: قد قال العلماء: لا مُشاحَّة في الاصطلاح.

قلنا: نعم، لا مشاحة في الاصطلاح، لكن أي إنسان يأتي بمصطلح ما فلا ينبغي أن أفسره بفهمي أنا وإلا كان هذا ظلمًا له.

والجادَّة في ذلك: أن يُطلَب منه بيان المقصود بهذا المصطلح الذي يستعمله؛ لأن المصطلحات تختلف بحسب اختلاف الحِرف والمهن والفنون والعلوم، ولذلك فإنك تجد –مثلاً– الفاعل في باب الجنايات وعند علماء الجريمة يختلف عن الفاعل عند النحاة وعنه عند علماء الفلسفة والكلام... وهكذا، فكلمة «الفاعل» تختلف باختلاف أهل العلم وأهل الحرف والمهن.

ولذلك تجدون بعض المصطلحات موجودة هي هي في أكثر من علم وفن، كالقياس مثلًا، فهل القياس المنطقي كالقياس الأصولي؟

الجواب: لا، فهذا شيء وذاك شيء آخر، فلابد من أن يُحدد المقصود بالمصطلح عند المتحدث به.

فحددوا هذه الأمور واجعلوها نصب أعينكم، واطلبوا تفسير المصطلحات من أهلها الذين اصطلحوا عليها، فإذا سمعت عالمًا من العلماء قد تكلم وجاء بمصطلح من المصطلحات؛ فلا تبادر إلى إنكاره، أو بالإنكار عليه أو باتهامه ببدعة أو شذوذ في القول حتى تعرف ماهية هذا المصطلح وحقيقته.

وخذ على ذلك مثلًا: قضية «شرط الكمال» التي قال بها الحافظ ابن حجر العسقلاني والشيخ محمد ناصر الدين الألباني وغيرهما؛ حيث بادر بالإنكار من بادر وقال: «الأصل أن الشرط خارج الماهية» وجعل يردد كلامًا حفظه عن علماء الأصول وجعل يطبقه على هؤلاء العلماء الفحول، ولعله لا يفهم شيئًا مما يقول.

فالحافظ ابن حجر رحمه الله ما قال إن الأعمال خارج الإيمان، وما قال ذلك الإمام الألباني رحمه الله، ولو قال أحدهما: (إنني أقصد بقولي "شرط" أنه خارج ماهيَّة الإيمان) -وحاشاهما- لقلنا على الفور: هذا قول المرجئة، ولكنهما يقولان: إن الإيمان قول وعمل.

وإنما تعجل هؤلاء في الإنكار عليهم، وكان واجبًا عليهم أن يفهموا مرادهما من كلمة الشرطية.([70])

والشاهد من هذا: أنه ينبغي لك ألا تتعجل في الإنكار على من استخدم مصطلحا ما حتى تتبين مراده به، ولذلك أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن من استخدم مصطلحاً مجملاً فإنه يطلب منه أن يحدده وأن يشرحه، ثم ننظر فيه فنحاكمه إلى الكتاب والسنة؛ فإن كان ما يقوله حقاً؛ قلنا له: أنت محق ومصيب فيما قصدت من معنى، ولكن عليك أن تستخدم المصطلحات القرآنية أو النبوية وألا تستخدم مصطلحاً موهماً.

وإن كان ما يقوله باطلًا رددناه لفظا ومضمونا. ولا شك أن هذا غاية الإنصاف، لا أن تلقى الأحكام والتهم جزافًا، فهذا جهل، وهذا ما يفعله الحدَّاديَّة في هذا العصر([71])، حيث يتصرفون بهذا الأسلوب، أسلوب

---

[70]) راجع رسالتي: (تبرئة الذمة من الطعن في علماء الأمة)

71) الحدادية: نسبة إلى مؤسسها وهو محمود أحمد الحداد المصري، وهي فرقة مخالفة لمنهج السلف رغم محاولتها الانتساب في الظاهر للسلف وما أسهل الدعاوى!

ومن سمات الحدادية:

1- الغلو في التبديع والتسرع في إطلاقه فلا يشترطون قيام الحجة وتوفر شروط التبديع وانتفاء موانعه فلا يلتزمون بضوابط التبديع عند علماء السلف، ومن ذلك الغلو:

2- قولهم: كل مَنْ وقع في بدعة فهو مبتدع، وكل مَنْ لم يبدع المبتدع فهو مبتدع، ورتبوا على ذلك:

3- التبديع بما لا يعد بدعة والتجريح والتشنيع بما لا يعتبره أهل السنة انحرافاً منهجياً.

4- تحريم الترحم على كل مَنْ وقع في بدعة أو ظهر له انحراف في عقيدته ولو كان من أئمة السلف، وينكرون على مَنْ يترحم عليهم، بل يمنعون ويبدعون من يترحم على مثل أبي حنيفة والشوكاني وابن الجوزي وابن حجر والنووي، بل ويمنعون إطلاق الألقاب العلمية التي يستحقونها كـ(الإمام) (العلامة) (الحافظ) (الشيخ)، ويعدُّون ذلك تعظيماً لأهل البدع، ويحرمون القراءة في كتبهم مع ما فيها من علم نافع وفوائد كثيرة.

5- تظاهرهم بالحماس للمنهج السلفي والدفاع عنه ثم يطعنون في علمائه ودعاته وبغضهم لعلماء المنهج السلفي المعاصرين وتحقيرهم ولا سيما أهل المدينة، ثم تجاوزوا ذلك إلى ابن تيمية وابن القيم وابن أبي العز شارح الطحاوية، يدندنون حولهم لإسقاط منزلتهم ورد أقوالهم.

6- انتقاص العلماء والمشايخ الذين لا يوافقونهم، والطعن بهم ومعاداتهم بشتى الأساليب، وتعظيم مَنْ يوافقهم والتعصب له، حتى يرفعونه إلى أعلى مراتب العلماء ويصفونه بأضخم الألقاب.

7- مخالفة أئمة السلف في مواقفهم من زلات العلماء بحجة تحريم التقليد.

المصيدة، فيتصيد لك الأقوال ويَحمِلها على غير محمَلِها أو يُحَمِّلها ما لا تحتمل، وهذا لا يمت لمنهج السلف بصلة.

واعتبِرْ بصنيع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع خصومه لما ناظروه في قضية «العقيدة الواسطية» بين يدي نائب السلطنة وقوله: **"ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلوليَّة والنُّفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم أنا لو وافقتكم كنت كافرا لأني أعلم أن قولكم كفر وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له وكان هذا خطابنا.**

فلهذا لم نقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله كما لو شهد شخص بالزور على شخص أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه لم يكن له أن يشهد عليه بالزور ولا أن يقذفه بالفاحشة"([72])

8- إثارة الفتن والتحريش بين السلفيين والطعن بعلمائهم وذلك بإثارة موضوعات كجنس العمل وشرط الصحة، ووصف مَنْ لا يكفر تارك الصلاة أو تارك المباني الأربعة وما دونها من الأعمال الصالحة من أهل العلم وطلابهم بالإرجاء ومخالفة الإجماع، والتشنيع على مَنْ يعذر بالجهل في مسائل الكفر، تفريق السلفيين بسبب بعض المسائل التي يسوغ فيها الخلاف.

9- الضعف العلمي الشديد عند رؤوسهم، والإهمال التام للعلم الشرعي كعلوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وأصوله واللغة بفروعها بين أتباعهم.

10- السعي الحثيث لإسقاط أي داعية أو طالب علم سلفي مؤهل يبرز على الساحة؛ وذلك لتخلوا الساحة الدعوية لأمثالهم من الجهال.

11- تطبيق مبدأ الهجر في كل مخالفة.

12- رفض أصول أهل السنة في مراعاة المصالح والمفاسد والأخذ بالرخص.

13- تسترهم ببعض علماء السنة مكراً وكيداً، فينشرون لهم في مسائل فقهية أو حديثية مع مخالفتهم لهم في منهجهم العام.

14- رفضهم لقواعد الجرح والتعديل التي وضعها علماء الحديث، والتفريق بين تطبيق هذه القواعد في الرواة وبين تطبيقها في المبتدعة.

15- التقول على أهل السنة ونسبة ما لم يصدر منهم لهم افتراء وبهتاناً.

16- ألسنتهم حداد وقلوب غليظة وأفعال وتصرفاتهم فظة.

17- الجفاء والإرهاب الفكري والظلم والعدوان والسب والطعن في المواقف والردود.

18- الكبر والعناد والهوى والمجادلة بالباطل.

19- الغلو والتنطُّع وشدة الحقد والعداوة.

نسأل الله لنا ولهم وللمسلمين كافةً الهداية والرشاد.

[72]) انظر: الرد على البكري (2/ 494)

والمعنى: أنا لو قلت بما تقولون به لكفرت لكني لا أكفركم، فنظر رحمه الله إلى موانع التكفير؛ يعني أنا أفهم الأمر جيداً، فلو قلت الآن بما تقولون به أكون قد رددت الحق عامداً في باب الأسماء والصفات فأكون بذلك كافراً؛ لوقوعي حينئذ في مذهب أهل التعطيل -الجهمية- عن علم وعن معرفة وعن عمد، فلا أقول بقولكم الباطل، لكني مع ذلك لا أكفركم فقد يكون عندكم كذا أو كذا من موانع وقوع الكفر عليكم، كما ذكره رحمه الله في المجلد الثالث من «مجموع الفتاوى 3/ 179».

إذن كلمة «التأويل» هذه كلمة مجملة ولذا فقد فصل الشيخ رحمه الله الكلام فيها، فقال: «اعلموا أن التأويل يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان»:

والاشتراك هو: تزاحم المعاني في اللفظ الواحد، وهو عكس الترادف. قال الأخضري:

والاشتراكُ عكسهُ الترادفُ

وهذه قاعدة، فالترادف يعنى أن يتعدَّدَ اللفظُ ويتَّحدَ المعنى، كقولنا: (الإنسان، والبشر)، وعكسه الاشتراك وهو: تزاحم المعاني على اللفظة الواحدة، فاللفظ واحد والمعاني متعددة ويقع الاشتراك في الاسم والفعل والحرف، فمثال الاشتراك في الاسم: كلمة «عين»، فالعين تطلق في لغة العرب على الجاسوس، وتطلق على الذهب أو الفضة، وتطلق كذلك على العين الباصرة، وتطلق على عين المياه. وهذا يعد من باب المشترك، ومثله أيضًا لفظ «القروء» جمع قرء، فهل هو الحيض أو الطهر؟، ومثاله في الفعل: كلمة «عسعس» هل معناها أقبل أو أدبر؟، ومثاله في الحرف: «الباء» هل هي للملاصقة، أو للاستعانة، أو للتبعيض؟ وهكذا.

فالاشتراك يقع في المفردة -يعني في الفعل والاسم والحرف-، ويقع كذلك في التركيب نفسه، وقد سبق هذا بالتفصيل في علم الأصول في تعليقنا على كتاب «معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة».

وبعد هذه المقدمة التي لا بد منها ندلف إلى ذكر المعاني الثلاث التي ذكرها المصنف رحمه الله لكلمة «التأويل».

قال المصنف رحمه الله:

اعلموا أن التأويل يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

١- يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال:

وهذا هو معناه في القرآن، نحو {ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]، {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} [يونس: ٣٩]، {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ} [الأعراف: ٥٣] أي: ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حالٍ.

قال الشارح:

المعنى الأول لكلمة "التأويل":

«**يُطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال**»: أي في الحال المتأخر، يعني فيما بعدُ، فإن كنا في الدنيا فالأمر سيكون في ثاني الحال يعني في الدار الآخرة.

قال: «**وهذا هو معناه في القرآن، نحو {ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}**» {تأويلاً} يعني: مرجعاً، ومصيراً، ومآلاً، إذن هو خير في المآل، والمآل في الاخرة. فقوله: {أحسن تأويلا} يعني أحسن مآلاً، أحسن مرجعاً، أحسن مصيراً في النهاية وفي الدار الآخرة.

قوله: {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}: يعني حقيقته التي هي حقيقته، يعنى هؤلاء الكفار كانوا يسمعون عن اليوم الآخر فيكذبونه، وقد أخبر القرآن الكريم بأمور عظيمة عن هذا اليوم فكذَّبَ بها الكفار، قال سبحانه: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} لكن هذا التأويل سيأتي يوم القيامة حينما يقع ويرون ما أخبرهم الله به.

وكذلك كذَّب الكفار أيضاً بالعذاب الذي سيقع عليهم في الدنيا، وكان كل رسول يحذرهم فيسخرون منه، فحينما يأتي العذاب الذي حذرهم منه نوح، أو حذرهم وتوعدهم به هود أو صالح أو شعيب - حينما يأتي هذا العذاب يكون قد أتى التأويل، يعني هم يسمعون عن العذاب فمنهم من يصدق به ومنهم من يكذب، فمتى يأتي التأويل؟ يأتي حينما يأتي الشيء المُخبَرُ به ويقع.

قوله: {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قد جاءت رسل ربنا بالحق}: يعني حينما يتحقق يقولون: هذا ما كانت تخبر به الرسل، ها هو قد تحقق الآن.

إذن كلمة التأويل: أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني الحال، يعني مآل الكلام إلى حقيقته التي هي حقيقته؛ فإن كان خبراً فتأويله يكون نفس حقيقة الأمر المخبَر عنه، فمثلًا:

الساعة تأويلها وقوعها، وتأويل أحداث يوم القيامة وقوعه على الحقيقة، وتأويل نعيم الجنة أو عذاب النار تحققه ورؤية هذه الأمور على حقيقتها.

وأما التأويل في حق أسماء الله وصفاته فيكون معناه معرفة كُنهِ هذه الأسماء والصفات، وتلك لا يعلمها إلا الله؛ قال –سبحانه-: {ولا يحيطون به علما}، أي لا يحيطون به بذاته، ولا بأسمائه، ولا بصفاته، ولا بأفعاله، فلا يحيطون به علمًا ولا تدركه الأبصار، فالتأويل هنا إن عرفناه نكون قد عرفنا كُنْهَ الله تبارك وتعالى، وهو ما قال عنه الإمام مالك: «والكيف غير معقول» يعنى لا تستطيع عقولنا أن تدركه، فالاستواء مثلًا معلوم في القرآن والسنة، ومعلوم في لغة العرب ، وكذلك اليد معلومة، والعين معلومة، فمعاني تلك الصفات كلها معلومةٌ من لغة العرب، ولكن كيفية هذه الصفات غير معقولة، إذ إنَّ العقول لا تستطيع أن تدرك حقيقتها ولا أن تحيط بها علماً.

وأما تأويل الأمر، فمعناه الامتثال، فقوله سبحانه: {أقيموا الصلاة} هذا أمر، وتأويله: أن تصلى.

قوله: {آتوا الزكاة}: تأويله: أن تؤتي الزكاة، والأمر بالصوم تأويله: أن تصوم، والأمر بالحج تأويله: أن تحج. وهكذا.

فالحاصل: أن تأويل الخبر: هو وقوع المخبر عنه.

ومنه: قوله تعالى في قصة يوسف: {إني رأيت أحد عشر كوكبا و الشمس و القمر رأيتهم لي ساجدين قال يبنى لا تقصص رءياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا}، فلما تحققت الرؤيا بعد سنين ورفع أبويه على العرش

وخروا له سجدا -أي أخوته- وكان عددهم أحد عشر، قال: {يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا}([73]).

وأما تأويل الطلب فبالامتثال، فإن كان أمرًا فبالإتيان والتنفيذ، وإن كان نهيًا فبالاجتناب عن إذعان والتزام.

مثال ذلك: ما جاء في الصحيحين عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ([74])؛ تعني قوله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا}، ومعلوم أنها نزلت آخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فقولها: «يتأول» يعني يمتثل، ويكثر من هذه الكلمة الطيبة.

إذن هذا هو المعنى الأول لكلمة «التأويل»: ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

فتأويل الخبر: وقوعه، وحقيقته في المآل، وتأويل الأمر: تنفيذه، وتأويل النهي: اجتنابه.

قال المصنف رحمه الله:

٢- ويطلق التأويل على التفسير، وهذا قول معروف كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

قال الشارح:

هذا هو المعنى الثاني من معاني التأويل، وهذا كما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»([75])، وفي قول ابن عباس رضي الله عنه: أنا من الراسخين في العلم

([73]) فائدة تتعلق برؤيا يوسف عليه السلام: اعلم أن من سجد ليوسف عليه السلام هم أخوته دون أبيه وأمه، ولذلك فصل الشمس والقمر عن الأحد عشر كوكبًا، والشمس أبوه لأنه نبي، والقمر أمه، والكواكب أخوته، فالشمس صاحبة الضوء الأساسي ومنها يستمد النورَ القمرُ وسائرُ الكواكب، وكذلك فإنهم كانوا يستمدون النور من يعقوب عليه السلام لأنه كان نبيًّا، أما أبناء يعقوب - عدا يوسف- فلم يكونوا أنبياء على القول الراجح.

([74]) أخرجه البخاري (817)، ومسلم (484).

([75]) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (7055)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.

الذين يعلمون تأويله، وكذلك في حديث جابر رضي الله عنه في وصف حجة الوداع قال: { وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ}([76]) أي: تفسيره.

ولذلك لو قلنا: ما معنى «التأويل» في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}؟ وهل التأويل هنا بمعنى ما يؤول إليه الأمر في ثاني حال أو بمعنى التفسير؟

نقول: إذا قلنا إن التأويل هنا بمعنى ما يؤول إليه الأمر في ثاني حال فلابد أن نقف على اسم الجلالة وقفًا لازمًا في قوله: {وما يعلم تأويله إلا الله}، ثم بعد ذلك نستأنف: {والراسخون في العلم يقولون...} فتكون الواو في قوله: {والراسخون} للاستئناف، و{الراسخون}: مبتدأ، وجملة {يقولون ءامنا به كل من عند ربنا} خبر.

لكن إذا قلنا: إن التأويل هنا بمعنى التفسير، فلا يلزم الوقوف على اسم الجلالة، فتقرأ: {وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم}، والواو في قوله {والراسخون} عاطفة، وجملة {يقولون..} حال، أي: والراسخون في العلم يعلمون تأويله في حال كونهم يقولون {ءامنا به كل من عند ربنا}، فاللفظ هنا مشترك.

قال المصنف رحمه الله:

٣- أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه، له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

أ – إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه ومثال هذا النوع: ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الجارُ أحقُّ بِصَقَبِهِ». فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار وحمل هذا الحديث على خصوص الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أن حديث جابر الصحيح: «فإذا ضُرِبَت الحدودُ وصُرِفت الطرقُ فلا شُفعَة» دل على أن المرادَ بالجار الذي هو أحقُّ بصَقَبِه خصوصُ الشريك

---

76) رواه مسلم في صحيحه (1218).

المقاسِم، فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح يجب الرجوع إليه من كتاب وسنة، هذا تأويل يسمى تأويلاً صحيحاً وتأويلاً قريباً، ولا مانع منه إذا دل عليه النص.

قال الشارح:

هذا هو المعنى الثالث من معاني التأويل، وهو ما استمسك به المتكلمون حتى صيروه طاغوتًا يردون به ما شاءوا من نصوص الكتاب والسنة. ولأجله دارت رحى الحرب بين أهل السنة وبين أهل البدعة.

قوله: «فالتأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل»:

فإذا كان ثمة لفظ من الألفاظ له معنيان: معنى ظاهر، ومعنى غير ظاهر. فالظاهر هو الراجح، والآخر هو المرجوح والمؤول، فإذا وجدت قرينة تقتضي تقديم المرجوح على الراجح قدَّمنا المؤول المرجوح على الظاهر الراجح.

ومن الأدلة على ذلك: ما جاء في الحديث القدسي: «يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»([77]).

الظاهر هنا أن رب العالمين سبحانه نسبَ المرضَ لنفسه، فهل ربُّ العالمين يمرض؟ – كلا وحاشاه سبحانه–، ولذلك لجأ أهل العلم هنا إلى التأويل لقرينة في اللفظ نفسه.

والقاعدة: أن ربَّ العالمين سبحانه، وكذا نبيه صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شيئًا فإن البيان يكون في هذا الكلام نفسه؛ لأنَّ الله سبحانه نزَّل أحسن الحديث كتابا، فهو كلام مبين ولذا لا يحتاج إلى غيره، والله سبحانه أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلاً، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقون فالرَّسُولُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِمَا يُرِيدُ إِخْبَارَهُمْ بِهِ، وَهُوَ أَقْدَرُهُمْ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ وَالْإِفْصَاحِ عَنْهُ، وَهُوَ

([77]) أخرجه مسلم (2569)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَحْرَصُهُمْ عَلَى هِدَايَةِ الْخَلْقِ، وأشدُّهم إِرَادَةً لِذَلِكَ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِي كَلَامِهِ شَيْءٌ مِنَ النَّقْصِ وَالْقُصُورِ؛ بِخِلَافِ كَلَامِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَقْصٍ فِي أَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَوْ جَمِيعِهَا.

فقال هنا: «يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ»، فظاهر اللفظ نسبة المرض لله تعالى، لكن حينما نتدبر النص نجد فيه القرينة التي تدل على أن المقصود هو المعنى المرجوح الذي لم يتبادر إلى الأذهان؛ لأن الذي يتبادر إلى الأذهان حينما نسمع قوله: «مرضت» أن الله هو الذي مرض -والعياذ بالله- وهذا من اعتقده كفر.

لكن حينما ننظر إلى النص بكامله نجد أن تمام النص يبين أن المرض كان للعبد، فنسبه الله لنفسه لكى يحثك على أن تعود إخوانك من المرضى، ولذلك قال بعدها: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟»، ولم يذكر ذلك في الإطعام أو السُّقْيَا، بل قال: « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ -وقال: لو سقيته- لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي» أي لوجدت ثواب الإطعام وثواب السُّقْيَا عندي، ولكن خص المريض بذكر المعية؛ لأن المرض يكسر صاحبه حتى ولو كان مَلِكًا أو صاحب سلطة أو مال، بل إنك قد تجد من يسخر من المتدينين ومن كلامهم، لكنك لو ذهبت إليه وهو في فراش المرض وجدته ذليلًا خاضعًا، بل قد يقول لك: ادع الله لي، وقد كان بالأمس يسخر منك ومن دعوتك، لكن المرض قد كسره وأذله.

وتجد صاحب المال الذي يجمع ويمنع إذا مرض ذلّ، بل وبدأ يبحث عن الفقراء والمساكين من أقاربه وجيرانه، بل لربما أرسل إليهم لكي يعودونه ويدعون له، فناسب هذا الحال معية الله عز وجل؛ لأنه الجبار الذي يجبر قلوب المنكسرين، ولذلك جاء في بعض الأخبار المنسوبة إلى بنى إسرائيل: أن موسى عليه السلام قال لربه: «أين أبغيك يا رب؟ قال: ابغني عند المنكسرة قلوبهم»، فالانكسار يجعل الانسان قريبًا من رب العالمين، ولذلك فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والحاصل: أننا صرفنا اللفظ هنا عن الظاهر المتبادر إلى الذهن لوجود القرينة في نفس اللفظ.

ثم ذكر المصنف رحمه الله أن للتأويل بهذا المعنى ثلاث حالات عند علماء الأصول:

الحالة الأولى: صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه، ومثَّل له بحديث أبي رافع رضي الله عنه، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«الجَارُ أَحَقُّ بِصَقَبِهِ»([78])، وفي لفظ «بسقبه»، والصقب والسقب يعني القرب والملاصقة([79])، فالجار أحق بما يليه وما يقرب منه، يعني أن الجار أحق بالشفعة.

واسم الجار يقع على من جاورك وهذا هو المعنى المعروف المتبادر إلى الأذهان، وهذا هو الظاهر، ويطلق كذلك على الشريك المشارك لك في الأرض أو في العقار قبل التقسيم، وهذا هو المعنى المحتمل المرجوح.

فظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الجَارُ أَحَقُّ بِصَقَبِهِ**» ينصرف إلى الجار الذي يسكن بجوارك والذي له حقوق الجيرة المعروفة لا الشريك الذي يطلق عليه أنه جار، فهذا معنى بعيد مرجوح، فقد تكون الشركة بين رجلين على أرض في مكان ما ويكون أحدهما يعيش في مصر والآخر في السعودية، ولا يرى أحدهما الآخر أصلًا، فكيف يطلق عليه أنه جار له؟! فهو معنى مرجوح ولكن يحتمله اللفظ، لكن دلَّ حديث جابر رضي الله عنه: «فإذا ضُربت الحدود وصُرفت الطرق فلا شُفعة»، وفي رواية: «قضى النبي صلى الله عليه وسلم بالشفعة في كل ما لم يقسم، فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة» -دلَّ على أن الجار الذي له حقُّ الشُّفعة هو المقاسِم الذي لم يتميز نصيبُه عن نصيبك، ولا حدوده عن حدودك، ومن ثم يقع عليه الضرر بدخول أجنبي عليه، فليس لكل جار حقُّ الشفعة، فإذا صرفت الطرق وقسمت وكان لكل واحد مدخل ومخرج يتميز عن الآخر فلا شفعة حينئذ ولو كان مجاورًا لك.

ومثاله: لو أن ثلاثة اشتروا أرضًا مشاعًا أو ورثوها ولم تقسم، لم يكن لأحدهم أن يبيع حصته لغير شريكيه إلا بإذنهما، وإلا عادا عليه بحق الشفعة، وكانا أولى بحصته من غيرهما بسعر مثلها.

ولذلك قال الشيخ هنا: «دلَّ حديث جابر رضي الله عنه على أن المراد بالجار الذي هو أحق بصقبه خصوص الشريك المقاسم» يعني أن هذا الحديث خاص وليس عامًّا، فحمل لفظ (الجار) على المعنى المرجوح لا الظاهر وذلك لوجود القرينة الدالة على هذا التأويل.

وعليه فهذا التأويل الذي يستند إلى دليل صحيح هو تأويل صحيح، ويسميه بعضهم (تأويل قريب)، والأمثلة عليه كثيرة، **منها**: قوله تعالى: {أتى أمر الله}: فظاهر كلمة {أتى} أنه قد جاء وتحقَّقَ وقوعُه ولكنه قال

([78]) أخرجه البخاري (**6978**)، من حديث أبي رافع رضي الله عنه.

([79]) انظر: «**النهاية في غريب الحديث والأثر**» لابن الأثير (**41/3**).

بعدها: {فلا تستعجلوه} فهذه قرينة دلت على أنه لم يأت بعد، وإنما عبر عن المستقبل بالماضي لتحقق الوقوع، وهذا أسلوب بلاغي معروف، دل على تحقق مجيء يوم القيامة، وهذا من باب صرف اللفظ عن ظاهره لوجود القرينة.

ومنها: قوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} هل الاستعاذة تكون بين يدي القراءة –أي قبلها– أو تكون بعدها؟

والجواب: أنها تكون بين يدي القراءة كما عَلَّمَنا ذلك النبيُّ صلى الله عليه وسلم حيث كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم قبل افتتاح القراءة، فإذن معنى قوله تعالى: {فإذا قرأت القرآن} يعني: فإذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله، فتركنا الظاهر المتبادر لوجود الدليل القطعي اليقيني من فعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي بيَّن لنا أن المقصود من قوله {فإذا قرأت}: أي إذا أردت أن تقرأ، وليس إذا فرغت من القراءة.

وقد أخذ بعض العلماء بالظاهر فجعلوا الاستعاذة بعد القراءة، وهو قول داود الظاهري ومن تبعه، استدلالا بورود الفعل بصيغة الماضي: {فإذا قرأت}، والصواب قول الجمهور.

ومنها: قوله سبحانه: {إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق}:

فهل الوضوء معلَّقٌ بالقيام نفسه، أم بإرادة القيام؟ لا شك أنه الثاني، فالذي قام إلى الصلاة ووقف بين يدي الله ينبغي أن يكون متوضئًا، وهذا فهمناه من السنة الصحيحة.

ومنها: قول النبي صلى الله عليه وسلم عن هلال رمضان: "إذا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا وإذا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ»([80])

قال الشوكاني رحمه الله: قَوْلُهُ: (إذَا رَأَيْتُمُوهُ) أَيْ الْهِلَالَ، هُوَ عِنْدَ الْإِسْمَاعِيلِيِّ بِلَفْظِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – «يَقُولُ لِهِلَالِ رَمَضَانَ: إذَا رَأَيْتُمُوهُ فَصُومُوا» وَكَذَا أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَظَاهِرُهُ إيجَابِ الصَّوْمِ حِينَ الرُّؤْيَةِ مَتَى وُجِدَتْ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا لَكِنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى صَوْمِ الْيَوْمِ الْمُسْتَقْبَلِ.([81])

---

[80]) أَخْرَجَهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ.

81) نيل الأوطار للشوكاني.

والحاصل: أن الظاهر الراجح المتبادر من الممكن أن يُعدَلَ عنه إلى المرجوح المحتمل لقرينة صحيحة دل عليها الكتاب أو السنة، وهذا النوع من التأويل صحيح لا شكَّ فيه، ولكن بهذه الشروط.

وهذا هو التحقيق خلافًا لما ذهب إليه بعض أهل العلم من إنكارهم مصطلح التأويل جملة وتفصيلًا.

قال المصنف رحمه الله:

ب – الثاني هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً وهو في نفس الأمر ليس بدليل فهذا يسمى تأويلاً بعيداً، ومثَّل له بعض العلماء بتأويل الإمام أبي حنيفة – رحمه الله – لفظ (امرأة) في قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل».([82]) قالوا: حمل هذا على خصوص المكاتبة تأويل بعيد؛ لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه؛ لأن «امرأة» و «أي» صيغة عموم([83])، وأكدت صيغة العموم بـ(ما) المزيدة للتوكيد، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة هذا حمل للفظ على غير ظاهره لغير دليل جازم يجب الرجوع إليه.

قال الشارح:

هذه الحالة الثانية من حالات التأويل بمعناه عند الأصوليين، وهي صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً وهو في نفس الأمر ليس بدليل، لكن ظنَّه المجتهد –خطأً منه– دليلًا فأخذ به وقدَّمه على ظاهر النص المتبادر منه، وهذا أمر وارد وقوعه من المجتهد، فهو وإن كان لا يُقبل أي من جهة الأخذ

---

82) لو أضيف هنا: (بالمرأة المكاتبة) لكان أوضح للمعنى فيتسق السياق ويتم قول الإمام أبي حنيفة.

83) تنبيه: قال محقق ط. عالم الفوائد في الحاشية معلقًا: «كذا في الأصل وأثبتها في المطبوعة: (لأن «أي» في قوله: «أيما امرأة»).

قلت: وهو الصواب يعني («أي» في قوله: «أيما امرأة»)، لأن "أي" من ألفاظ العموم وأضيفت إلى كلمة "امرأة" النكرة فأفادت العموم يعني: كل امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، كما بينا.

وإن كان كلام الشيخ له معنى صحيح، يعني إضافة كلمة «أي» إلى كلمة «امرأة» تفيد العموم؛ لأن كلمة «امرأة» وحدها لا تفيد العموم بل تفيد الاطلاق؛ فكلمة «امرأة» دون دخول «أي» عليها تفيد الإطلاق لأنها نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات تفيد الإطلاق، والاطلاق عموم بدلي لا شمولي، فلما دخلت عليها "أي" التي هي من ألفاظ العموم صار اللفظ عاما فمراده رحمه الله هنا أن كلمة «امرأة» و «أي» لما اجتمعتا كانت الصيغة صيغة عموم.

به، إلا أنه يُقبل من جهة أنه اجتهاد أُجر عليه المجتهد أجراً واحداً، ولذلك لا نعيب عليه لأن الاجتهاد باب واسع.

مثاله: تأويل الإمام أبي حنيفة – رحمه الله – لفظ (امرأة) في قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل» بالمرأة المكاتبة.

وبناء على هذا التأويل أجاز أبو حنيفة رحمه الله أن تباشر المرأة عقد النكاح بنفسها بدون إذن وليها، واستدل على ذلك بقول الله تعالى: {وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن}، قال: فأسند النكاح إلى المرأة، فعُلم أنه يجوز للمرأة أن تنكح بغير إذن وليها.

قال: وأما حديث «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل باطل» فليس المقصود به كل امرأة، وإنما المقصود به امرأة معينة وهي المرأة المكاتَبة؛ حيث يتعاورها أحكام الحرة وأحكام الأمة.

والمكاتَبَةُ: مُعَاقَدَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَسَيِّدِهِ، يُكَاتِبُ الرَّجُل عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ عَلَى مَالٍ مُنَجَّمٍ، وَيَكْتُبُ الْعَبْدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُعْتَقٌ إِذَا أَدَّى النُّجُومَ([84])، وقد رغَّب الشارع في الكتابة، فقال تعالى: {والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا}. فالمرأة المكاتِبة هي التي تقول لسيدها: أنا سأعمل وأدفع لك ثمني من ناتج عملي فأصير حرة.

لكن حمل هذا اللفظ على خصوص المرأة المكاتِبة تأويل بعيد –كما قال المصنف– لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه؛ فـ«أي» في قوله: «أيما امرأة» من صيغ العموم، فكيف خصها الإمام أبو حنيفة رحمة الله عليه بالمرأة المكاتبة؟!

ثم ذكر وجهًا آخر وهو تأكيد صيغة العموم بـ(ما) المزيدة للتوكيد، قال: «فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة هذا حمل للفظ على غير ظاهره لغير دليل جازم يجب الرجوع إليه».

قلت: والعموم هنا عموم عن طريق الظاهر لا عن طريق القطع واليقين، فلما دخلت عليه (ما) المزيدة للتوكيد نقلته من الظهور في العموم إلى النصِّيَّة في العموم فأفاد القطع.

([84]) انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (360/38).

فالحاصل أن قوله في الحديث: «أيما امرأة» هذا عمومٌ نَصِّيٌّ فكيف يُصرَفُ هذا العمومُ النَّصِّيُّ إلى حالة نادرةٍ لا تخطر ببال السامع أصلاً، وهي المرأة المكاتبة.

فالمكاتبة عند أبي حنيفة لا تتزوج إلا بعد الرجوع إلى وليها لأنه قد يمنعها زوجها عن العمل فيما بعد فلا تستطيع دفع أقساط المكاتبة فيتضرر الولي بذلك.

وهذه حالة نادرة لا تخطر ببال السامع أصلاً فكيف يُحمل عليها النص العام، فهذا تأويل للنص عن ظاهره المتبادر بل عن نصه على العموم لوجود قرينة لا توجد إلا في ذهن المجتهد، وإنزال الأحكام والنصوص على الوقائع نادرة الحدوث هذا أمر لا ينبغي أن يأخذ به المجتهد في قضايا الاجتهاد، فلو أرادها الشارع الحكيم لنص عليها صراحة ولما أدخل الناس في الأحاجِيِّ والألغازِ.

قال المصنف رحمه الله:

ج – أمَّا صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليلٍ فهذا لا يسمى تأويلاً في الاصطلاح، وإنما يقول له الأصوليون: لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً} [البقرة: ٦٧] قالوا: عائشة.

قال الشارح:

هذه هي الحالة الثالثة من حالات التأويل بمعناه عند الأصوليين، وهي: صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل صحيح ولا لشيء ظنه المجتهد دليلًا، بل بغير دليل أصلا؛ ولذلك قال: فهذا لا يسمى تأويلاً في الاصطلاح، وإنما يقول له الأصوليون: لعباً؛ لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولو فُتح هذا الباب لقبلت تأويلات أو تحريفات الشيعة –قبحهم الله–، ومنها: تفسير غلاتهم قوله: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً} قالوا: عائشة–والعياذ بالله–.

فلتبحث إذن أيها القارئ عن الأفكار الكفرية الموجودة في أذهان أولئك الكفار ممن يطعنون في زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني كيف استطاعوا أن يفسروا هذه اللفظة بما فسروها به من قولهم: إن المراد «السيدة عائشة»؟! فهذا ليس تأويلاً بل تحريف، ولو فتح هذا الباب باسم التأويل لعاد على أصل الدين بالبطلان، ولذلك قال الإمام ابن تيمية في حق هؤلاء كلمة شديدة –قال:

«**إِنَّهُمْ تَظَاهَرُوا بِنَصْرِ السُّنَّةِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَهُمْ –فِي الْحَقِيقَةِ– لَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا وَلَا لِلْفَلَاسِفَةِ كَسَرُوا؛ لَكِنَّ أُولَئِكَ الْمَلَاحِدَةَ أَلْزَمُوهُمْ فِي النُّصُوصِ –نُصُوصِ الْمَعَادِ– نَظِيرَ مَا ادَّعُوهُ فِي نُصُوصِ الصِّفَاتِ**»(85)

وقال : "**لَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا وَلَا لِأَعْدَائِهِ كَسَرُوا بَلْ سَلَّطُوا الْفَلَاسِفَةَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى الْإِسْلَامِ** "[86]

أي أنهم أعطوا الفلاسفة السيف الذي يذبحونهم به، فوجدنا من هؤلاء المنحلين المنحرفين من الملاحدة من خصم هؤلاء المؤولة، وقال: طالما صح عندكم تفسير الاستواء بالاستيلاء واليد بالقدرة، فما المانع من تأويل نصوص الأخبار التي تتحدث عن اليوم الآخر، فيكون الحديث عن اليوم الآخر المقصود به كذا، والبعث المقصود به كذا، والجنة المقصود بها جنة المؤمن في قلبه في الدنيا، وهكذا مما يبطلون به الشرائع والأمور الغيبية؟

فهم بتصرفهم هذا –حينما تسلطوا على نصوص الأخبار عن الله وعن أسمائه وصفاته فقاموا بتحريفها بحجة التأويل –أعطوا المبرر للملاحدة في أن يتسلطوا على نصوص الوعد والوعيد وأن يقوموا بتحريفها بنفس الأسلوب بحجة أنه لا فرق بينها، وكان لسان حالهم بل لسان مقالهم: أنتم أوّلتم نصوص الصفات، ونحن أوّلنا نصوص الوعد والوعيد.

ولذلك كان هؤلاء المؤولة سببًا في تسلط الملاحدة على النصوص وتفريغها من مضامينها فأنكروا الوعد والوعيد وأنكروا الجنة والنار، وأنكروا الميزان والصراط، وأنكروا الصلاة والزكاة والحج والصيام بنفس الأسلوب؛ فكل لفظة يمكن تحريفها عن ظاهرها بحجة التأويل.

ففرَّغَ هؤلاء المجرمون النصوص من مضامينها الشرعية –وهي أمور مقطوع بها في الكتاب والسنة وأجمعت عليها الأمة– احتجاجا بما فعل المؤولون من المتكلمين في آيات الصفات.

ولذلك لا ينبغي فتح هذا الباب هكذا، فمن أراد صرف لفظ عن ظاهره فهناك قواعد أصولية منضبطة بالكتاب والسنة المطهرة، كما مرَّ معنا في شرح حديث «يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: **أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ**».

---

[85]) مجموع الفتاوى (3/ 33)

[86]) مجموع الفتاوى (6/ 240)

قال المصنف رحمه الله:

ومن هذا النوع: صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم: {استوى} بمعنى (استولى)، فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل يدل عليه ألبتة، وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً؛ لأنه تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل ولا مستند، فهذا النوع لا يجوز؛ لأنه تهجم على كلام رب العالمين، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف: أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله، ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

قال الشارح:

هذه القاعدة المذكورة عن السلف ينبغي أن يكون متفقًا عليها بين أهل الملة، وأنه لا يجوز لأحد أن يصرف لفظاً عن ظاهره المتبادر منه إلا لدليل يجب الرجوع إليه، وهذا مذهب السلف قاطبة.

ولذلك دائماً ما يطعن هؤلاء المبتدعة في كلمة «السلف»، بل ويتضجرون من سماعها.

ولا تحسبنَّ أن سبب نفورهم وكراهتهم لكلمة "السلف" و "السلفية" هو كراهتهم للتقليد أو لأنهم مجتهدون لا يقلدون أحدًا، بل هم مقلدة مغروسون في التقليد الأعمى، معظمون لأشياخهم أيما تعظيم، حتى إن الواحد منهم ليدع كلام السلف الصالح إلى كلام أشياخه ولا يبالي، ولذلك يقولون: مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم؛ أي من مذهب السلف رحمهم الله، فهم على كل حال مقلدون.

قال المصنف رحمه الله:

وكلُّ هذا الشَّرِّ يا إخوان – اسمعوا نصيحة مشفق – كلُّ هذا الشر إنما جاء من مسألة، وهي نَجَسُ القلب وتلطُّخُه وتنجُّسُه([87]) بأقذار التشبيه؛ فإذا سمع ذو القلب المتنجِّسِ بأقذار التشبيه صفةً من صفات الكمال أثنى الله بها على نفسه، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير، وكاستوائه على عرشه، وكمجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من صفات الكمال والجلال، أول ما يخطر في ذهن المسكين أن هذه صفة تشبه صفة الخلق، فيكون قلبه متنجِّساً بأقذار التشبيه، لا يَقدر الله حَقَّ قدرِه، ولا يُعظِّمُ الله حقَّ عظمتِه، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون مشبهاً أولاً نَجِسَ القلب

([87]) في طبعة الجامعة الإسلامية والدار السلفية بالكويت والسنة بمصر: (وتَدَنُّسُهُ) بدلا من (تنجُّسُهُ)، والمعنى واحد.

مُتقذِّرَه بأقذار التشبيه فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق جل وعلا عنه بادعاء أنها تشبه صفة المخلوق فيكون مشبهاً أولاً معطلاً ثانياً، ضالاً ابتداءً وانتهاءً، متهجماً على ربِّ العالمين، بنفي صفته عنه وادِّعاء أن تلك الصفة لا تليق.

قال الشارح:

أشار رحمه الله هنا إلى أصل الشر في هذا الباب وهو تنجس القلب وتلطُّخه بأقذار التشبيه، فحينما يسمع هذا المشبه كلمة «استواء» هو لا يفهم منها ولا يعقل إلا استواءً مشابهاً لاستواء المخلوق، ولا يعقل مجيئًا إلا مشابهًا لمجيء المخلوق، ولا سمعاً إلا مشابهًا لسمع المخلوق، ولا بصرًا إلا مشابهًا لبصر المخلوق؛ فبدأ مشبهاً ثم انتقل إلى مرحلة النفي والتعطيل؛ فعطَّل صفة الله عز وجل عن الله ونفى ما أثبته الله لنفسه بحجة أنه يُشبِه صفةَ المخلوق، ثم إن منهم من توقف عند حد النفي والتعطيل وهم المعتزلة ومنهم من جرَّه هذا النفيُ والتعطيل إلى الوقوع في التحريف والتشبيه، فأثبت معنىً للفظ من عند نفسه وهم الأشاعرة، فجمع هذا المتنجس بأقذار التشبيه أنواعًا من الضلالات؛ ضلال التشبيه، وضلال التعطيل، وضلال التحريف، والعياذ بالله.

قال المصنف رحمه الله:

واعلموا أن هنا قاعدة أصولية أطبق عليها من يُعتَدُّ به من أهل العلم، وهي: أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد، ولا سيما لو مشينا على فرضهم الباطل: (أن ظاهر آيات الصفات الكفر)؛ فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يؤول الاستواء بـ(الاستيلاء)، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بيانها؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

قال الشارح:

هذا ردٌّ مُجمَلٌ من الشيخ رحمه الله بَيَّنَ فيه فساد مذهب أهل التأويل، حيث ألزمهم بتلك القاعدة الأصولية المتفق عليها بين جميع الفرق وهي: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة»، أي إذا احتاج الناس إلى بيان نصٍّ فإنه لا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتأخر عن

بيانه، وإلا تعبَّدَ الناسُ لله على وجه لم يرده سبحانه. فتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز في حق النبي صلى الله عليه وسلم ولا سيما في أبواب العقائد حتى لا يسبق إلى الأذهان فهمٌ غلطٌ عن الله عز وجل، بل كيف يسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن خطأٍ متوهم في حق الرب جل جلاله ولا يبادر إلى بيان وجه الحق فيه، وهو الذي كان يسعى جاهدا لسد الذرائع حماية لجناب التوحيد.

قال: «ولا سيَّما لو مشينا على فرضهم الباطل: (أن ظاهر آيات الصفات الكفر)»: يعني هم قالوا إن ظاهر {استوى} الكفر؛ لأنه تشبيهٌ وتشبيه الله بخلقه كفر، وكذلك مجيء الربِّ سبحانه وتعالى، كما في قوله: {وجاء ربك والملك صفا صفا}، قالوا: هذا ظاهره التشبيه، والتشبيه كفر.

وكذلك قوله: {بل يداه مبسوطتان} ظاهره كفر كما يدَّعون والعياذ بالله، فلابد إذن للنبيِّ المنوط به البيان أن يبين ذلك بل ويصرح به كما قال سبحانه: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزِّلَ إليهم}، فإذا كان مَنْ تولى مهمة بيان القرآن الكريم لم يقل حرفاً واحدًا في صرف هذه الظواهر عن حقيقتها، بل زاد على ذلك نصوصاً أخرى ظاهرها فيما يزعم هؤلاء المتكلمون التشبيه أيضاً، وعندنا –نحن أهل السنة– أنها صفات أثبتها النبي صلى الله عليه وسلم لرب العالمين سبحانه من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف، فلم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تولى مهمة البيان: إن ظاهر هذه النصوص هو تشبيه الله بخلقه فينبغي لكم أن تؤولوها، فلما لم يقل هذا دلَّ ذلك على أحد أمرين:

– إما أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن عالماً بتلك الحقائق، وهؤلاء المتكلمون علموا ما لم يعلمه عليه الصلاة والسلام، وهذا فيه ما فيه من الكفر والبهتان والعياذ بالله، وهذا الاحتمال محال.

– وإما أنه قد علمها وسكت عنها، فترتب على ذلك ترك الناس على الظواهر الكفرية، بل أضاف إلى ذلك نصوصًا أخرى ظاهرها الكفر فجعل الأمر مُلَبَّساً على الناس، وهذا أيضا محال.

فلما لم يكن هذا ولا ذاك –لأن من اعتقد واحدًا من هذين الوجهين فقد كفر– فلم يبق إلا قول واحد –دلَّ عليه أسلوب السَّبر والتقسيم– وهو أن هذا الكلام حقٌّ، وأن تلك الظواهر مرادة لله تعالى، وليس فيها ما يدل على التشبيه، وإنما أُتي القوم من سوء فهمهم عن الله عز وجل وعن رسوله صلى الله عليه وسلم.

ولذا قال ابن القيم رحمه الله في «الكافية الشافية» آتيًا على أصول منهج أهل التأويل والتحريف والتعطيل بالبطلان([88]):

فَسَلِ المعطِّلَ عن ثلاث مسائل ... تقضي على التعطيل بالبطلان

ماذا تقول أكان يعرف ربه ... هذا الرسول حقيقة العرفان

أم لا؟ وهل كانت نصيحته لنا ... كل النصيحة ليس بالخوان

أم لا؟ وهل حاز البلاغة كلها ... فاللفظ والمعنى له طوعان؟

فإذا انتهت هذي الثلاثة فيه كا ... ملة مبرأة من النقصان

فلأي شيء عاش فينا كاتمًا ... للنفي والتعطيل في الأزمان

بل مفصحًا بالضِّدِّ منه حقيقة الإ ... فصاح موضحة بكل بيان؟

ولأي شيء لم يُصرّح بالذي ... صرحتُمُ في ربنا الرحمن؟

ألعجزه عن ذاك أم تقصيره ... في النصح أم لخفاء هذا الشأن؟

حاشاه بل ذا وصفكم يا أمة ... التعطيل لا المبعوث بالقرآن

ولأيِّ شيء كان يذكر ضِدَّ ذا ... في كل مجتمع وكل زمان؟

قال المصنف رحمه الله:

فالحاصل أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد هذا الاعتقاد –الذي يحل جميع الشبه، ويجيب عن جميع الأسئلة– أن الإنسان إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فليمتلئ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب مُنزِّهاً مُعظِّماً لله

([88]) انظر: «نونية ابن القيم = الكافية الشافية» (102).

جل وعلا، غير متنجس بأقذار التشبيه، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدَّح بها، وأثنى عليه بها نبيه صلى الله عليه وسلم، على غِرار {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، والشرُّ كلُّ الشرِّ في عدم تعظيم الله، وأن يسبقَ في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تُشبه صفةَ المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الفاجرة الخائنة.

قال الشارح:

فأول شيء هو تعظيم ربنا سبحانه واعتقاد أن هذا الوصف غاية في الكمال والشرف، فلا يتسلل إلى قلب العبد أيُّ شبهةٍ تدل على التمثيل أو التشبيه بالمخلوقين تضطره إلى التعطيل ثم التحريف، فهذه سلسلة مشئومة مترتب بعضها على بعض، ولا ينفك عنها إلا من عظَّم الله عز وجل حق تعظيمه وقدره حق قدره، وعلم أن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وهذا كلام مهم جداً لأن بعض هؤلاء ممن ينتحلون ذلك المذهب يقول متعجبا: كيف تؤمنون بصفة الاستواء، وأنه ليس كاستواء المخلوقين؛ وذلك لأنه لا يَفهمُ من الاستواء إلا ما يكون كاستواء المخلوقين، فظواهر هذه النصوص عنده تفيد التشبيه، فالواقع أنه هو المشبه في الأصل وليس نحن –ومن باب الأولى فإن النصوص لا تدل على على التشبيه– ولذلك فإننا –كما هو منهج السلف– نستوعب أن هناك استواءً يليق برب العالمين سبحانه ولا يشبه استواء المخلوقين، واستواء المخلوقين لا يشبه استواء رب العالمين، فنعقل هذا الكلام جيدا ونؤمن به متبعين في ذلك كتاب ربنا وسنة نبينا بفهم سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين، وأما أنتم –يا من تلبستم بعقائد المتكلمين– فلم تتشبعوا ولم تتضلعوا من علوم القرآن الكريم والسنة المطهرة فكان ما كان، والعياذ بالله.

قال المصنف رحمه الله:

ولابد في هذا المقام من نُقط يتنبه لها طالب العلم:

أولاً: أن يعلم طالب العلم أن جميع الصفات من باب واحد، إذ لا فرق بينها ألبتة؛ لأن الموصوف بها واحد وهو جلَّ وعلا لا يشبه الخلق في شيء من صفاتهم ألبتة، فكما أنكم أثبتم له جل وعلا سمعاً

وبصراً لائقين بكماله وجلاله لا يشبهان شيئاً من أسماع الحوادث ولا أبصارهم، فكذلك يلزم أن تُجرُوا هذا بعينه في صفة الاستواء والنزول والمجيء، إلى غير ذلك من صفات الكمال والجلال التي أثنى الله بها على نفسه.

واعلموا أن ربَّ السماوات والأرض يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يَلزمُه محذورٌ أو يَلزمُه مُحالٌ أو يؤدى إلى نقصٍ، كلُّ ذلك مستحيلٌ عقلاً فإن الله لا يصف نفسه إلا بوصفٍ بالغٍ من الشَّرف والعلو والكمال ما يقطع جميع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، على حدِّ قوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

قال الشارح:

الصفات كلها من باب واحد فلا فرق بينها البتة، فإذا أثبتم لله السمع والبصر لزمكم أن تثبتوا اليد، والاستواء وغير ذلك من الصفات الواردة في الكتاب والسنة فعليَّةً كانت أو خبريَّةً إذ كله من باب واحد.

فلو قلت: أنا أثبت لله سمعًا وبصرًا وحياةً لا كسمع ولا بصر ولا حياة المخلوقين، قلنا: وكذلك، فإننا نثبت لله استواءً لا كاستواء المخلوقين، ويدًا لا كيد المخلوقين، ورحمة وغضبًا لا كرحمة أو غضب المخلوقين وهكذا.

قوله: «واعلموا أن رب السماوات والأرض يستحيل عقلاً أن يصف نفسه بما يلزمه محذور أو يلزمه محال أو يؤدى إلى نقص...»: يعني هل ربُّ العالمين العليم العظيم الجبار المتكبر الذي هو على كل شيء قدير يمكن أن يصف نفسه بما يلزم منه أي محذور أو محال، أو ما يؤدى إلى نقص؟! هذا مستحيل.

بل إنكم وصفتم الله عز وجل بصفات وقلتم: هذه الصفات لا يلزم منها محذور أو محال، -يعني الصفات التي أثبتوها- ثم أتيتم على جُلِّ ما وصف به الرب سبحانه نفسه وقلتم: هذه صفات يلزم منها المحاذير والنقائص، فقدمتم أنفسكم على رب العالمين سبحانه وتعالى في العلم والبيان، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قال المصنف رحمه الله:

الثاني: أن تعلموا أن الصفات والذات من باب واحد، فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا إثبات وجود وإيمان، لا إثبات كيفيةٍ مكيَّفَةٍ محدَّدَةٍ، فكذلك نُثبِت لهذه الذات الكريمة المقدَّسة صفاتٍ إثباتَ إيمانٍ ووجودٍ لا إثباتَ كيفيةٍ وتحديدٍ.

قال الشارح:

يعني نحن وأنتم جميعًا نثبت ذات الله، لكن هل إثباتنا لذات الله تبارك وتعالى يترتب عليه أننا نعرف الكيفية وأن نكيفها وأن نحددها وأن نحيِّزَها؟ كلا، وإنما إثباتنا لذلك إثبات وجود وإيمان لا أكثر من ذلك.

فكذلك الشأن بالنسبة للصفات، وهذه الصفات لا نأتي بها من عند أنفسنا، بل نحن متمسكون بأننا لا نسمى الله ولا نصفه إلا بما سمى أو وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم الذي (لا ينطق عن الهوى).

لكنكم أنتم الذين تنفون عن الله ما وصف به نفسه وتأتون بصفات من عند أنفسكم، أنتم الذين تتقدمون بين يدي الله ورسوله وتصفون رب العالمين سبحانه بما لا يليق برب العالمين ولم يصفه به الرسول عليه الصلاة والسلام.

قال المصنف رحمه الله:

واعلموا أن آيات الصفات كثير من الناس يُطلق عليها اسم المتشابه وهذا من جهةٍ غلطٌ، ومن جهةٍ قد يسوغُ كما بينه الإمام مالك بن أنس، أما المعاني فهي معروفة عند العرب، كما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والسؤال عنه بدعة، كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول و السؤال عنه بدعة، واطرُده في جميع الصفات؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أن ما وُصِفَ به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق جل وعلا حق، والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق جل وعلا أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

فعلى كل حال: الشرُّ كلُّ الشرِّ في تشبيهِ الخالق بالمخلوق وتنجيسِ القلوبِ بقَذَرِ التشبيه، فالإنسان المسلم إذا سمع صفةً وُصف بها الله، أول ما يجب عليه أن يعتقد أن تلك الصفة بالغة من الكمال والجلال ما يقطع أوهام علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فتكون أرض قلبه طيبة طاهرة قابلة للإيمان بالصفات على أساس التنزيه، على نحو: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١].

قال الشارح:

قولهم: هذه الصفات من باب المتشابه؟

نقول: هذا غلط من جهة وقد يسوغ من جهة وذلك كما يلي:

إذا قصدتم أنها من المتشابه المطلق الذي لا يُعلَم معناه فهذا غلط إذ معناها معلوم من لغة العرب، وإذا أردتم بالتشابه أنها لا تُعلَم كيفيتُها فهذا صوابٌ ولكنه حُجَّةٌ عليكم إذ كل صفات الله لا تُعلم كيفيتها وكذلك ذاته سبحانه؛ فلم أثبتم يا معشر المعتزلة ذات الله ونفيتم صفاته؟! ولم أثبتم يا معشر الأشاعرة بعض الصفات ونفيتم البعض الآخر؟!

ولتفصيل ذلك نقول:

لو كان التشابه بمعنى أننا لا نفهم معانيها لأنها غير معلومة في لغة العرب مثل قوله: {آلم} وقوله: {كهيعص} فليست الصفات كذلك، فليس ما أفهمه من قوله: {بسم الله الرحمن الرحيم}، أو قوله: {الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة و لا نوم}، أو قوله: {قل هو الله أحد} كالذي أفهمه من قوله: {ألم}، أو قوله: {المص} أو قوله: {كهعيص}، فلتلك الصفات معان عربية معلومة، لكن كيفية الصفة متشابهة، فالتشابه هنا في الكيفية التي قال عنها الإمام مالك رحمه الله: «والكيف غير معقول»، لكنا نعرفها من جهة اللغة، بل ونفسرها ونطيل في تفسيرها، كما نطيل في تفسير آية الكرسي –مثلًا– وننقل عن الأئمة والعلماء في شرح هذه الآية بما جاء في كتاب الله وسنة النبي صلى الله عليه وسلم وبما فهمه سلف الأمة الصالح، فليس فيها لفظة واحدة لا تعرف العرب معناها.

واعلم أنه ما من صفحة في المصحف إلا وهي مليئة بأسماء الله وصفاته، فإذا قلنا إن الصفات من قبيل المتشابه لكان أكثر من نصف القرآن الكريم متشابهًا، ولذلك كما سبق وبينا لكم: لا تقبلوا كلامًا مجملًا حتى تسألوا عن معنى هذا المجمل.

قوله: «كما بينه الإمام مالك بن أنس أما المعاني فهي معروفة عند العرب...» إلخ:

قال مالك رحمه الله: (الاستواء غير مجهول): لأنا نعرف معناه من لغة العرب، كما نعرف معنى: الرحمن، والغفور والرؤوف، وكما نعرف معنى الإتيان والمجيء، ومعنى العين واليد، وهكذا.

(والكيف غير معقول): يعني لا نستطيع أن نعقله لأننا لا نعقل كيفية الذات.

(والسؤال عنه بدعة): يعني السؤال عن الكيفية لا عن المعنى بدعة، لأنه كيف يكون السؤال عن أمر غير مجهول بدعة؟! بل السؤال عن أمر غير معقول هو البدعة –وهو الكيف–.

وما ذكره مالك رحمه الله هنا عن الاستواء مطرد في جميع الصفات، والقول في الصفات فرعٌ عن القول في الذات، ولذلك ألزمهم المصنف بقوله: «كما أن ذات الخالق جل وعلا حق، والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق جل وعلا أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين»

وإلا فهل يمكنهم القول: إن ذات رب العالمين سبحانه يتبادر إلى الاذهان منها التشابه فلننفها! فيكونوا بذلك ملاحدة قد نفوا وجود الله سبحانه وتعالى.

قوله: «فعلى كل حال: الشرُّ كلُّ الشرِّ في تشبيهِ الخالق بالمخلوق ... إلى قوله: {وهو السميع البصير}»:

فأساس الشر كله في تشبيه الله تعالى بخلقه، أما المؤمن الحق فيؤمن بصفات الله تعالى دون تشبيه ولا تكييف ولا تعطيل ولا تحريف، إذ إنه يؤمن بقول الله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}

قال المصنف رحمه الله:

وهنا سؤال لابد من تحقيقه لطالب العلم، أولاً: اعرفوا أن اللفظ المقرر في الأصول: أنه إذا دَلَّ على معنىً لا يَحتَمِلُ غيره هذا يسمونه: (نصاً)، كقوله مثلاً: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: ١٩٦]، فإذا كان يحتمل معنيين فلا يخلو من حالتين؛ إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر، وإما أن يتساوى بينهما فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذى يسمى في الاصطلاح: (المجمل) كما لو قلت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عَوَّرُوها، أو عينَه الجارِيَة غَوَّرُوها، أو عينَه ذهبَه وفضتَه سَرَقُوها؛ فهذا مجمل، وحُكم المجمل أن يُتوقف عنه إلا بدليل على التفصيل، أما إذا كان نصاً صريحاً فالنص يعمل به ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ، أما إذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمى بـ(الظاهر)، ومقابله يسمى: (محتملاً مرجوحاً)، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه، كما لو قلت: (رأيت أسداً) فهذا مثلاً ظاهراً في الحيوان المفترس، محتمل للرجل الشجاع.

قال الشارح:

- اللفظ إذا لم يكن له إلا معنى واحد فهو **النص**، كقوله: {تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ}، وقوله: {فانبجست منه اثنتا عشر عيناً}، وكذلك قوله: {قل هو الله أحد}، وقوله: {وإلهكم إله واحد}. فهذه الألفاظ محددة لا تحتمل إلا معنى واحدً، فيقول الأصوليون: هذا نص في هذا المعنى المحدد الذي لا يحتمل سواه.

- وإذا كان له معنيان على سبيل التساوي فهو المشترك، والمشترك نوع من أنواع المجمل.

والمجمل: هو "ما احتمل معنيين أو أكثر من غير ترجُّح لأحدهما أو أحدها على غيره".([89])

وقيل: ما يتوقف فهم المراد منه على غيره، إما في تعيينه أو بيان صفته أو مقداره.

وقيل: هو اللفظ الصالح لأحد معنيين الذي لا يتعين معناه لا بوضع اللغة ولا بعرف الاستعمال.

قال الكواكبي في منظومته:

ومجمل ما مراده اختفى بنفس لفظه فلم يعرف إلا بالاستفسار ممن أجملا([90])

والمشترك: هو تزاحم المعاني في اللفظ الواحد وهو عكس الترادف، ومثَّل له بقوله: (عدا –يعنى اعتدى– اللصوص البارحة على عين زيد)، فالعين هنا يحتمل أن تكون هي الباصرة التي يرى بها، أو عين الماء التي يسقى منها إبله، أو عين الذهب التي عنده في البيت، فأي عين هي المقصودة؟ فكلمة العين هنا كلمة مجملة، فلا بد إذن من الاستفسار ممن أجملها، كما هو الشأن في كل مصطلح مجمل، فمتى حصل الإجمال في الكتاب أو السنة فإنه يطلب تفسيره من الكتاب والسنة.

قال: «وحكم المجمل أن يُتوقف عنه إلا بدليل على التفصيل، أما إذا كان نصاً صريحاً –كقوله: {تلك عشرة كاملة}– فالنص يعمل به ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ»: فالنص لا يُلغَى إلا بالنسخ فقط، وقد مَرَّ معنا هذا في أصول الفقه.([91])

---

[89]) انظر: "قواعد الأصول" (52)، و"مختصر ابن اللحام" (126)، و"شرح الكوكب المنير" (414/3)، و"أضواء البيان" (93/1)، والإحكام للآمدي (11 /3)

[90]) منظومة الكواكبي في أصول الفقه عند الأحناف (18، 19)

91) راجع شرحنا على كتاب (معالم أصول الفقه) للجيزاني، وهو موجود على موقعنا على الانترنت.

- وإذا كان –أي اللفظ- له معنيان لا على سبيل التساوي بل أحدهما راجح والآخر مرجوح؛ فالراجح الظاهر، والمرجوح المؤول. ويجب حمل اللفظ على الظاهر إلا لدليل صارف عنه.

مثال: قولك: (رأيت أسداً): هل رأيت أسداً حقيقة يعني الحيوان المفترس، أو تقصد أنك رأيت رجلًا شجاعًا؟

فالمتبادر إلى الأذهان أنه الحيوان المفترس، فهذا هو الراجح، لكن إذا قلت: رأيت أسداً في المعركة؛ فالمعنى أنك رأيت رجلًا شجاعًا، لوجود القرينة. فهذا اللفظ ظاهر في الحيوان المفترس، محتمل في الرجل الشجاع.

وأيضًا: لو قلت: (رأيت بحراً)؛ أي البحر المعروف وهو مجمع الماء العظيم، لكن لو قلت: رأيت بحرًا في المسجد؛ فإنك تعني رجلًا عالمًا جالسًا لأن البحر –مجمع الماء- لا يكون في المسجد، فعدلنا عن الظاهر الراجح إلى المعنى المرجوح لقرينة، وهي قوله: في المسجد.

قال المصنف:

«إذاً فنقول: ما الظاهر[92] المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله: {يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠]، وقوله في صفة النزول وصفة المجيء وما جرى مجرى ذلك؟

هل[93] نقول: ما الظاهر المتبادر من هذه الصفة أهو مشابهة الخلق حتى يجب علينا أن نؤوِّل ونصرف اللفظ عن ظاهره؟ أو هو تنزيهُ ربِّ السماوات والأرض حتى يجب علينا أن نُقِرَّهُ على الظاهرِ مِن التنزيه؟

الجواب: أن كل وصف أُسند إلى رب السماوات والأرض فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق فإقراره على ظاهره هو الحق، وهو تنزيه رب السماوات والأرض عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته، وهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته؟! لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر!»

قال الشارح: انتبه أيها القارئ الكريم لهذا الكلام فإنه كلام ماتع ومهم، إذا أسقطناه على آيات الصفات فإنا نقول: ما هو الظاهر المتبادر منها؛ هل هو مشابهة الله لخلقه؟ أم مباينة الله وتنزيهه سبحانه عن مشابهة خلقه؟

---

92) هكذا في الأصل الصوتي وهو الصواب، خلافا لسائر النسخ المطبوعة إذ جعلوها: "فالظاهر"

93) قوله (هل): هنا زائدة ولعلها سبق لسان، وبدونها يتسق السياق ويُستغنى عن التعديل والإضافة التي ذكرت في سائر النسخ.

وضعوا في اعتباركم أن الكلام هنا عن رب العالمين سبحانه، وأنه سبحانه هو الذي وصف نفسه بتلك الصفات، فلم يصفه بها فلان أو فلان، حتى يقال: إن هذا الوصف فيه تشبيه، ولكنَّ آفة القوم كما ذكرنا سابقًا أنهم عقدوا قلوبهم على مشابهة الرب للخلق فزعموا أن هذه الظواهر غير مرادة

فتأمل هذا الموضع من كلام المصنف فإنه نفيس جدًّا وفيه حل لكثير من الإشكالات في هذا الباب، فحينما يُسنَدُ الوصف إلى خالق السماوات والأرض فلا ينبغي أن يتبادر إلى الأذهان أصلاً أي تمثيل لله أو تشبيه له سبحانه بخلقه، بل لابد من التنزيه، وبهذا نكون قد فررنا من التعطيل ومن التمثيل ومن التكييف دفعةً واحدة.

فمتى استقر في قلبك أن الله ليس كمثله شيء فإنك ستفر بهذا من التشبيه وبالتالي ستفر من التعطيل، ومن ثم التكييف أو التمثيل، فلن تلجأ حينئذ إلى التحريف الذي سموه كذبًا بـ«التأويل» ليلبسوا به على الناس.

[مناقشة المتكلمين بمقتضى قواعدهم]

قال المصنف رحمه الله:

«ثم بعد هذا المبحث([94]) الذي ذكرنا نحبُّ أن نذكر كلمةً قصيرةً لجماعةٍ قرءوا في المنطق والكلام، وظنُّوا نفي بعض الصفات من أدلة كلامية، كالذي يقول مثلاً: لو كان مستوياً على العرش –والفرض أن العرش مخلوق– لكان مشابهاً للحوادث، لكنه غير مشابه للحوادث، يُنتِجُ: فهو غير مستوٍ على العرش، هذه النتيجة الباطلة تُضادُّ سبعَ آيات من المحكم المنَزَّل.»

قال الشارح:

هذا الكلام الذي سيذكره المصنف رحمه الله إنما يُعنى به الذين ابتلوا بدراسة المنطق وعلم الكلام، والسر في قول المصنف: «نحب أن نذكر كلمة قصيرة لجماعة قرءوا في المنطق و الكلام... إلخ» أن هذه محاضرة ألقاها رحمه الله بالجامعة الاسلامية بالمملكة العربية السعودية ولم تكن للطلاب فقط، بل حضرها طائفة من الأساتذة، وكان من ضمنهم علماء أزهريون أشاعرة أُعيروا إلى الجامعة الإسلامية لتدريس علوم الآلة ونحوها،

[94]) هكذا في الأصل الصوتي، خلافا لسائر النسخ ففيها: (البحث).

فأراد الشيخ رحمه الله أن يلفت نظر هؤلاء وأن يناقشهم بمقتضى قواعدهم؛ لأن الأزهريين درسوا المنطق والفلسفة في جامعة الأزهر، أما علماء السعودية فلم يكونوا -في ذاك الوقت- يعرفون شيئًا لا عن المنطق ولا عن الفلسفة ولا عن علم الكلام؛ وذلك أن الدعوة التي تلقوها عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله هي الدعوة الفطرية القائمة على الكتاب والسنة، فما ابتلوا بدراسة المنطق ولا علم الكلام ولا الفلسفة.

أما الشيخ الشنقيطي رحمه الله فكان قد درس هذه العلوم بمسقط رأسه بشنقيط من أعمال موريتانيا، فكان مثله كمثل المصريين الذين درسوا هذه العلوم كالشيخ عبد الرزاق عفيفي والشيخ محمد خليل هراس والشيخ عبد الرحمن الوكيل ثم استقر بهم المقام بالمملكة العربية السعودية.

فاهتَبَل رحمه الله الفرصة لنقض مذهب الأشاعرة بالقواعد والأصول المنطقية التي كانوا يتعالون بها على غيرهم، فقد كانوا ينظرون إلى علماء السعودية ومشايخها على أنهم لا يعرفون مثل هذه العلوم، بل كانوا يعيبون عليهم ذلك، ففوجئوا بالشيخ الشنقيطي عالمًا متمكناً من هذه العلوم بل ومن علوم اللغة والتفسير وأصول الفقه، فرحمه الله رحمة واسعة.

ويلاحظ حكمة الشيخ الشنقيطي رحمه الله في كلامه هذا، فلم يخاطب المستمعين بقوله مثلا: (كما تقولون أيها الأشاعرة)، وإنما قال: "**نحبُّ أن نذكر كلمةً قصيرةً لجماعةٍ قرءوا في المنطق والكلام، وظنُّوا نفي بعض الصفات من أدلة كلامية...إلخ**"، فلم يجابههم بهذا الكلام وهذا من الحكمة واللين في الدعوة، لعلهم يتذكرون فيرجعوا عما يعتقدون وحتى لا يجعل للعناد عليهم من سبيل، فرحمه الله تعالى.

قوله: «كالذي يقول مثلاً: لو كان مستوياً على العرش -والفرض أن العرش مخلوق- لكان مشابهاً للحوادث، لكنه غير مشابه للحوادث، ينتج: فهو غير مستو على العرش»:

هذا مثال ضربه المصنف رحمه الله لمناقشة المتكلمين ولبيان فساد مذهبهم بمقتضى قواعدهم.

وقوله: «والفرض أن العرش مخلوق» جملة معترضة، وقوله: «العرش مخلوق» هذا لا يخالف فيه أحد بالإجماع، قوله: «لو كان مستوياً على العرش لكان مشابهاً للحوادث، لكنه غير مشابه للحوادث، ينتج: فهو غير مستو على العرش»؛ هذا هو القياس المنطقي، وهو مكون من جملتين:

المقدمة الأولى (المقدَّم)، والمقدمة الثانية (التالي)، وربط بينهما بأداة الشرط (لو) فكانت شرطية، ثم بعد ذلك استثنى بـ(لكن)، فسميت لذلك شرطية استثنائية، ثم هي متصلة لاتصال طرفيها في كونهما موجودين، واتصالهما في كونهما معدومين([95])، بخلاف الشرطية المنفصلة ومثالها أن تقول: العدد إما زوج وإما فرد، فإذا لم يكن زوجاً إذاً فهو فرد. فهذه شرطية منفصلة.

ثم هي لزومية، وضابط اللزومية عندهم هي ما لا بد أن يكون اتصال مقدَّمها بتاليها في الوجود والعدم لموجب يقتضي ذلك ككون أحدهما سببًا للآخر، والآخر مسبَّبًا له، أو كون أحدهما ملزومًا للآخر، والآخر لازمًا له، فبذلك الموجِب المقتضي للارتباط بينهما في الوجود والعدم سميت لزومية.

وعكسها الاتفاقية –أي الشرطية المتصلة الاتفاقية–، وضابطها: أنها لا ربط بين مقدَّمها وتاليها، أي لا علاقة بينهما أصلًا؛ لا عقلًا ولا شرعًا ولا عادة، ولكن اتفق في الخارج أنَّ صدْق كل منهما مع صدْق الأخرى، أي اجتمعا في الوجود مع أنه لا أثر لنفي أحدهما –لو فرض– في نفي الآخر، ولا عدمه إذ لا علاقة بينهما أصلًا، كقولك: «كلما كانت الشمس طالعة كان الإنسان ناطقًا»، فلا علاقة أصلًا بين طلوع الشمس وبين نطق الإنسان([96]).

نعود إلى كلام المصنف رحمه الله هنا:

قال: «لو كان مستوياً على العرش» هذه المقدمة الأولى (المقدَّم)، قال: «والفرض أن العرش مخلوق» يعني وافترضنا أن العرش مخلوق؛ إذن فالذي يستوي على العرش المخلوق يكون مشابهًا للحوادث، فقال: «لكان مشابهاً للحوادث» لأن الاستواء على المخلوق من صفات المخلوقين، وهذه المقدمة الثانية (التالي)؛ ثم ذكروا الاستثناء: [لكنه غير مشابه للحوادث] لأنه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} فأنتج هذا عندهم: «فهو غير مستوٍ على العرش». وهو قياس لزومي، يعني يلزم منه أنه غير مستو على العرش سبحانه، وتلك نتيجة باطلة.

([95]) قال المصنف رحمه الله في «آداب البحث والمناظرة» للمصنف (ص 67، 68): «... أن الشرطية المتصلة هي التي يجتمع طرفاها في الوجود، ويجتمعان في العدم، بمعنى أنهما يجوز عدمُهما معًا، ويجوز وجودهما معًا، واجتماعهما في الوجود واجتماعهما في العدم هو معنى الاتصال فسميت متصلة لاتصال طرفيها في كونهما موجودين، واتصالهما في كونهما معدومين، فقولك «لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودًا» يجتمع طرفاها في الوجود: فتكون الشمس طالعة والنهار موجودًا، ويجتمعان في العدم: فتكون الشمس ليست بطالعة والنهار ليس بموجود، كما يقع في زمن الليل، واجتماعهما في الوجود والعدم هو معنى الاتصال الذي سميت بسببه متصلة».أهـ.

([96]) المصدر السابق (ص 68–70).

قال: «هذه النتيجة الباطلة تضاد سبع آيات من المحكم المنزل»:

وأوجه بطلان تلك النتيجة عديدة، منها أنه قياس فاسد الاعتبار لمخالفته سبع آيات من القرآن الكريم، وكل ما خالف القرآن فهو باطل، لأن نقيض الحق باطل بلا شك، وهل يجوز شرعا أو عقلا اعتماد قياس يناقض سبع آيات من القرآن الكريم؟! اللهم غفراً!!

قال المصنف رحمه الله:

ولكن الآن نقول في مثل هذا على طريق المناظرة([97]) والجدل المعروف عند المتكلمين، نقول: هذا قياس استثنائي مركب من شرطية متصلة لزومية، استُثنِيَ فيه نقيض التالي فأنتج منه نقيض المقدم حسب ما يراه مقيم هذا الدليل، ونحن نقول: إنه تقرر عند عامَّة النُّظَّار أن القياس الاستثنائي المركب من شرطية متصلة لزومية يتوجه عليه القدح من ثلاث جهات:

١- يتوجه عليه من جهة استثنائيته.

٢- ويتوجه عليه من جهة شرطيته إذا كان الربط بين المقدم والتالي ليس بصحيح.

٣- ويتوجه عليه القدح من جهتهما معاً.

وهذه القضية كاذبة الشرطية، فالربط بين مقدَّمها وتاليها كاذب كذباً بحتاً، ولذا جاءت نتيجتها مخالفة لسبع آيات.

وإيضاحه أن نقول: قولكم: (لو كان مستوياً على العرش لكان مشابهاً للحوادث)، هذا الربط بين (لو) و(اللام) كاذبٌ كاذبٌ كاذبٌ، بل هو مستو على عرشه -كما قال- من غير مشابهة للحوادث، كما أن سائر صفاته واقعة كما قال من غير مشابهة للخلق، ولا يلزم من استوائه على عرشه -كما قال- أن يشبه شيئاً من المخلوقين في صفاتهم ألبته، بل استواؤه صفة من صفاته، وجميع صفاته منزهة عن مشابهة الخلق، كما أن ذاته منزهة عن مشابهة ذوات الخلق، ويطَّرد هذا في مثل هذا.

وعلى كل حال فالجواب عن شيء واحد من هذا يَطَّرد في الكل.

---

[97]) في الأصل الصوتي: المناورة.

قال الشارح:

المقدمة الأولى (المقدم): «لو كان مستوياً على العرش».

المقدمة الثانية (التالي): «لكان مشابهاً للحوادث». ورُبط بينهما بـ(لو)، و(اللام)، ثم استثنى نقيض التالي –أي المقدمة الثانية– فقال: «لكنه غير مشابه للحوادث»، فأنتج منه نقيض المقدم وهو «فهو غير مستو على العرش»، وهذه قاعدة عقلية «يستثنى نقيض التالي فينتج –لزوماً– نقيض المقدم»؛ لأن نفي اللازم يقتضى نفي الملزوم.([98])

قوله: «**إنه عند عامة النُّظَّار**...» يقصد بهم علماء الكلام، الذين زعموا أن أول فرض على العبد النظر –أي في الأدلة– فسموا بالنظار وبأهل النظر.

وذكر رحمه الله في هذه الجملة ما يوجب القدح في هذا القياس وذلك من ثلاث جهات، تبين منها كذب تلك القضية المدعاة، ثم قال: «فالربط بين مقدمها وتاليها كاذب كذباً بحتاً، ولذا جاءت نتيجتها مخالفة لسبع آيات»؛ فمن قال: إنه لو كان مستوياً على العرش لكان مشابهًا للحوادث؟! هذا كلام لا نسلم به أصلاً؛ لأنه سبحانه يستوي على العرش استواءً يليق به من غير مماثلة لاستواء الحوادث، فاستواء الحوادث استواءٌ يليق بها، واستواءه سبحانه استواء يليق به، كما أن حياته تليق به، وسمعه يليق به، وبصره يليق به، وإلا لجاز لنا أن نقول: لو كان حيًّا لكان مشابهًا للحوادث لكنه غير مشابه للحوادث؛ فينتج: فهو غير حي، لو كان

([98]) وأذكر هنا لمزيد إيضاح نبذة عن القياس الاستثنائي عند المناطقة:

تعريفه: هو القياس الذي تُذكر نتيجته في إحدى مقدمتيه إما بعينها وإما بنقيضها، وسمي استثنائيًّا لاشتماله على أداة الاستثناء، وهي (لكن).

شروط إنتاجه:

1– أن تكون إحدى مقدمتيه كلية. 2– ألا تكون الشرطية فيه اتفاقية. 3– أن تكون الشرطية فيه موجبة.

تقسيمه:

ينقسم القياس الاستثنائي باعتبار نوع الشرطية فيه إلى قسمين: الأول: القياس الاستثنائي الاتصالي –وهو ما سنعنى بذكره هنا– والثاني: القياس الاستثنائي الانفصالي.

تعريف القياس الاستثنائي الاتصالي: هو ما كانت الشرطية فيه متصلة.

مثاله:

كلما كان الماء جاريًا (المقدم)، كان الماء طاهرًا (التالي) + لكن هذا الماء جارٍ = فهو طاهر.

كلما كان الماء جاريًا (المقدم)، كان الماء طاهرًا (التالي) + لكن هذا الماء ليس طاهرًا = فهو ليس بجارٍ.

والخلاصة: أن استخلاص النتيجة هنا يتم:

1– باستثناء عين المقدم فينتج عنه عين التالي كما في المثال الأول.

2– أو باستثناء نقيض التالي فينتج عنه نقيض المقدم كما في المثال الثاني.

سميعاً بصيراً لكان مشابهاً للحوادث، ولكنه غير مشابه للحوادث؛ فينتج: فهو غير سميع وغير بصير، وهذا قياس فاسد كقياسهم تماماً، ولا يقولون به ولا يلتزمونه([99])، فيُرد عليهم بنفس الدليل الذي استدلوا به، ولكن نركبه على بقية الصفات الأخرى.

وبه يعلم بطلان تلك القاعدة التي قعدوها، وفساد ذلك القياس الذي استدلوا به؛ إذ الربط بين المقدمتين ليس بصحيح، ولو كان الربط صحيحًا لأنتج نتيجة صحيحة.

قال رحمه الله: «هذا الربط بين (لو) و(اللام) كاذب كاذب كاذب». قلتُ: ولكن ما حملهم عليه إلا التدليس والكذب؛ فليس العيب في الأدلة ولا في تلك الأقيسة ولكن آفة هؤلاء القوم جاءت من التشبيه الذي تَقَذَّرت به قلوبهم.

قوله: «وعلى كل حال فالجواب عن شيء واحد من هذا يطَّرد في الكل»: يعنى لو أجبنا عن هذا المثال، وأسقطنا قياسهم الاستثنائي المركب المتصل اللزومي في صفة واحدة لكان هذا إبطالًا لكل استدلالاتهم في جميع الصفات.

وقد تكلم المصنف في كتابه «آداب البحث والمناظرة» عن هذا المبحث بشيء من التوسع، وقام رحمه الله بشرح هذا الدليل -وهو القياس الاستثنائي- وبين بطلانه بطريقة مُستَوعَبَةٍ ولكنه هنا اختصر الكلام اختصاراً لأنها محاضرة موجزة، لكنه أطال النفس هناك فراجعه فإنه نفيسٌ، وقد أتينا لكم بخلاصته وحاولنا قدر المستطاع أن نذكره بعبارات سهلة ومبسطة ليفهمه من لم يدرس المنطق والكلام حتى يحيط بجميع فوائد هذه المحاضرة النفيسة ولا يفوته منها شيء، والله الموفق.

قال المصنف رحمه الله:

وآخر ما نختم به هذه المقالة أنَّا نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وأن تلتزموا بثلاث آيات من كتاب الله:

الأولى: {ليس كمثله شيء} [الشورى: ١١]، فتُنَزِّهوا ربَّ السَّماوات والأرض عن مشابهة الخلق.

([99]) هذا من حيث الجملة، وإلا فإن منهم من التزم ذلك فأوَّل صفتي السمع والبصر بالعلم، وجعل متعلقهما كل موجود، كما نسب ذلك إلى أبي الحسن الأشعري، واختاره المكلاتي، وأجازه الإيجي والجرجاني، وجميعهم من الأشاعرة، انظر: (إثبات الأشاعرة صفتي السمع والبصر لله تعالى، د. صالح بن عبد العزيز بن عثمان سندي).

الثانية: {وهو السميع البصير} فتؤمنوا بصفات الكمال والجلال الثابتة في الكتاب والسنة على أساس التنزيه، كما جاء: {وهو السميع البصير} بعد {ليس كمثله شيء}.

قال الشارح:

أَوصَى المصنفُ رحمه الله بعد تقوى الله عز وجل بالتزام ثلاث آيات من كتاب الله، في التزامها النجاة من شَرَكِ التشبيه والتحريف.

أما الآية الأولى فقوله: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} فنؤمن بالجملة الأولى ونجعلها هي الأصل والأساس، حيث بدأ الله بها، فلم يقل: (هو السميع البصير وليس كمثله شيء)، وإنما بدأ بقوله: {ليس كمثله شيء} حتى تعلم أن الله عز وجل ليس له كفء ولا ند ولا مثيل سبحانه.

ومتى استقر في قلبك هذا الاعتقاد الجازم بالتنزيه، ثم وردت عليك النصوص الثبوتية التي فيها إثبات الصفات لله عز وجل فإنها ترد حينئذ على أرض خصبة غير مجدبة ولا متلطخة بقذر التشبيه فحينئذ تثمر ثمارًا إيمانية عظيمة.

فيجب عليك أولًا اعتقاد عدم مماثلة الله لأحد من خلقه وعدم مكافأة أحد من خلق الله لله، وأنه ليس له نِدٌّ ولا مثيل ولا شبيه، كما قال سبحانه: {ليس كمثله شيء}، ثم تأتي بقية الصفات بعد ذلك، كما قال: {وهو السميع البصير} فتنزل هذه الصفات على القلب نزول الغيث على الأرض الطيبة فتنبت وتثمر من معاني الإيمان ما لا يخطر ببال، بعكس من لم يستوعب هذا الأمر فإنه ينظر لنفسه على أنه حكم على النصوص، ومن ثَمَّ يستدرك على الله عز وجل وعلى أمين وحي الله في أرضه محمد صلى الله عليه وسلم، زاعما أن هذا الوصف الذي وصف الله به نفسه يستلزم التشبيه، وأنه كان ينبغي أن يصف نفسه بكذا وكذا، وأن هذه الصفة تفسيرها كذا وكذا، بل نجد من تشرب بهذه الأفكار والمعتقدات الكلامية حينما يريد أن يغمز أحدا من أهل العلم السلفيين يقول عنه: (إنه يقول إن الله مستوٍ على عرشه) وكأن عقيدة القرآن صارت سُبَّةً أو كفرًا بالله تعالى.

ما هذا التبجح والغرور؟!، بل إنه الجنون كما قال الشيخ رحمه الله، وصدق؛ فكيف يستدرك المخلوق الحادث على رب العالمين خالق السماوات والأرضين.

فكلام رب العالمين ليس كمثله كلام، فلا تقس كلامك أيها المخلوق على كلام الخالق سبحانه وتعالى، نعم، كلامك أنت تجوز عليه الأخطاء، وترد عليه الإشكالات والاستدراكات، أما كلام الله سبحانه فليس فيه أخطاء ولا إشكالات، ومن ثم لا يجوز الاستدراك على الله سبحانه وتعالى وإلا وَقَعْتَ في الحكم بغير ما أنزل الله وتكون قد استبدلت حُكمَك بحُكمِ الله—والعياذ بالله-.

فالذين يتكلمون عن صفات الباري سبحانه وعن آيات القرآن الكريم على هذا النحو المشين داخلون تحت الوعيد الذي تُوعِّد به من حكم بغير ما أنزل الله، بل إن هذه الآيات تنطبق أول ما تنطبق على هؤلاء المتكلمين؛ لأنهم تركوا أحكام الله في أعظم الأمور ليس في حد السرقة ولا في حد الزنى أو في حد القتل أو غيرها مما تدخل فيه أهواء النفوس وشهواتها، وإنما في أمر أعظم من هذا كله وهو الاعتقاد في أسماء الله وصفاته والذي يتعلق به كفر وإيمان.

فاعجب لهؤلاء كيف يحكمون في هذا الباب بغير ما أنزل الله ويردون حكم الله سبحانه وتعالى ويبدلون حكم الله ويحرفون الكلم عن مواضعه، حتى صاروا أولى بهذا الوصف من اليهود.

قال المصنف رحمه الله:

الثالثة: أن تقطعوا أطماعكم عن إدراك حقيقة الكيفية؛ لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل وهذا نصَّ الله عليه في سورة طه حيث قال: {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً} [طه: ١١٠]

فقوله: {يحيطون به} فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحل عند النحويين عن (مصدر) و(زمن) كما قال ابن مالك في الخلاصة:

المصدر اسمُ ما سوى الزمانِ مِن

مدلولَي الفعلِ كأَمْنٍ مِن أَمِنَ

وقد حرَّرَ علماء البلاغة في مبحث الاستعارة التبعية، أنه ينحلُّ عن (مصدر، وزمن، ونسبة) فالمصدر كامِنٌ في مفهومه إجماعاً.

فـ(يحيطون) تكمن في جوفها (الإحاطة) فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل، فيكون معه كالنكرة المبنية على الفتح[100])، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري بربِّ السماوات والأرض، فينفى جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين.

قال الشارح:

الأساس الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية الصفات:

وذلك في هذه الآية الثالثة التي ذكرها المصنف رحمه الله وجاء هذا الأصل كذلك في آيات عديدة.

وقوله: {ولا يحيطون به علمًا} أي لا يحيطون علمًا بذاته ولا بأسمائه ولا بصفاته ولا بأفعاله سبحانه وتعالى. ومن تأمل نظم الآية وتركيبها انقطع طمعه عن إدراك حقيقة كيفية صفاته سبحانه وتعالى، فقوله: {يحيطون} فعل مضارع، وهو كغيره من الأفعال الصناعية ينحلُّ عند النحويين عن (مصدر) و(زمن)، ثم ذكر قول ابن مالك رحمه الله: «المصدر اسمُ ما سوى الزمانِ... إلخ».

وقول ابن مالك: «مدلولي الفعل» يعني أن الفعل له مدلولان: الحدث -أي المعنى- والزمان. فإذا قلت: (قام) فهذا فعل يدل على القيام وهو الحدث -أو المعنى- ويدل على زمن القيام وهو الماضي.

وإذا قلت: (يقوم) فهذا فعل مضارع يدل على حدث -أو معنى- وهو القيام، ويدل على زمن وهو الحال والاستقبال.

وإذا قلت: (قم) فهذا فعل أمر يدل على الاستقبال فقط ولا يدل على الحال لأن المأمور إنما يقف بعد الأمر بالفعل ولو بثانية، بعكس المضارع فإنه يدل على الحال والاستقبال.

والحاصل: أن أي فعل فإنه يدل على حدث -وهو المعنى- ويدل على زمان؛ وهو الماضي، أو الحاضر والمستقبل كالمضارع، أو الاستقبال كفعل الأمر.

---

[100]) وقع في مطبوعة «دار عالم الفوائد»: «فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل، فيكون مثلاً يُبْنَى معه على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة علمٍ برب السماوات والأرض»، وما أثبتناه هو مطبوعة «الجامعة الإسلامية»، والأصل المسموع غير واضح ولعلها: فيكون معنى يبنى معه على الفتح.

وأما المصدر فهو المعنى أو الحدث فقط. قال: «المصدر اسمُ ما سوى الزمانِ من مدلولي الفعل»، ومدلول الفعل الزمن والحدث، فإذا حذفت ما سوى الزمان بقي معنا الحدث وهو المعنى، ثم ضرب على ذلك مثلًا فقال: «كأمن من أمن»: (أَمِنَ) فعل ماضٍ فيه زمان وهو الماضي، إذا ألغيناه بقي معنا (الأمن) وهو الحدث أو المصدر.

إذن قوله تعالى: {لا يحيطون}: {يحيطون} فعل مضارع من الأفعال الصناعية، والفعل الصناعي كما تقدم ينحل عند النحويين عن مصدر وزمن، فكلمة {يحيطون} كامنٌ فيها مصدرٌ؛ فإذا جاء الفعل منفيًّا فهو في الأصل نكرة في سياق النفي؛ لأنه يكمن في الفعل مصدر، والمصدر نكرة، فإذا جاء منفيًّا يكون نكرة في سياق النفي، ولذلك يقولون –اختصاراً-: الفعل المضارع في سياق النفي يفيد ما تفيده النكرة في سياق النفي وهو العموم، فهو صيغة من صيغ العموم. وقد سبق لنا هذا في شرحنا على كتاب «معالم أصول الفقه».

قوله: «فالمصدر كامن في مفهومه إجماعًا» أي عند النحاة وعند علماء البلاغة، فقد استدل أيضًا بما عليه علماء البلاغة من أن الفعل يكمن فيه المصدر.

فقوله: {لا يحيطون}: (لا) نافية، فتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل وهو الإحاطة.

قوله: «فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين»: أي فلا يستطيع الانسان أن يحيط بجنس أنواع الإحاطة، يعني أنه ينفي عنه جميع أنواع الإحاطة؛ لأن الإحاطة المسندة للعلم منفية عن رب العالمين، كما قال: {ولا يحيطون به علماً}؛ يعنى لا يُحاط برب العالمين علمًا، فهذا كامن فيه نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فنفى عن العلم البشرى أي نوع من أنواع الإحاطة برب العالمين بذاته أو بأسمائه أو بصفاته أو أفعاله سبحانه وتعالى.

قال المصنف رحمه الله:

فلا يشكل عليكم بعد هذا صفة نزول ولا مجيء، ولا صفة يد ولا أصابع، ولا عَجَب ولا ضحك؛ لأن هذه الصفات كلها من باب واحد، فما وصف الله به نفسه منها فهو حق، وهو لائق بكماله وجلاله، لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين وما وُصف به المخلوقون منها فهو حق مناسب لعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وهذا الكلام الكثير أوضحه الله في كلمتين: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}.

{ليس كمثله شيء} تنزيه بلا تعطيل، {وهو السميع البصير} إيمان بلا تمثيل، فيجب من أول الآية {ليس كمثله شيء} التنزيه الكامل الذي ليس فيه تعطيل، ويلزم من قوله: {وهو السميع البصير} الإيمان بجميع الصفات الذي ليس فيه تمثيل، فأول الآية تنزيه وآخرها إيمان، ومن عمل بالتنزيه الذي في {ليس كمثله شيء}، والإيمان الذي في قوله: {وهو السميع البصير}، وقطع النظر عن إدراك الكُنْهِ والحقيقةِ المنصوصِ في قوله: {لا يحيطون به علما} [طه: ١١٠] خرج سالماً.

قال الشارح:

نعم، لا ينبغي أن يكون ثمة إشكال؛ إذ إن جميع ما ورد من الصفات الخبرية ينطبق عليها ما فهمناه من قول الله تعالى {ليس كمثله شيء} وقوله {ولا يحيطون به علما} فيجب قطع الطمع عن إدراك حقيقة وكيفية جميع ما يقال عنه الصفات الخبرية، فكل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وصف لله عز وجل طَبِّق عليه قوله: {ليس كمثله شيء} وقوله {ولا يحيطون به علما}، ولا شك أن أهل الكلام ينفرون من هذا ويصدون عنه! فليقولوا ما شاءوا، وسنقول لهم: «وإن نخرتم»، كما قال النجاشي رضى الله عنه.

ومع ذلك فإن من ثاب إلى رشده منهم وتخلص من آفة التشبيه أدرك أن ما وصف الله به نفسه هو الحق، وأنه اللائق بكماله وجلاله، لا يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، ولذلك وجدنا الرازي بعد أن أفنى عمره في التنظير والكلام والجدال –وجدناه بعد هذا كله يقول:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فيه قيل وقالوا

وقال: (ما وجدت في الإثبات أفضل من قوله تعالى: {**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**}، ولا في النفي أفضل من قوله تعالى: {**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**}، وهذا ما أموت عليه).

قال المصنف رحمه الله:

وقد ذكرت لكم مراراً أني أقول: هذه الأسس الثلاثة التي ركزنا عليها البحث وهي:

١- تنزيه الله عن مشابهة الخلق.

٢- والإيمان بالصفات الثابتة بالكتاب والسنة وعدم التعرض لنفيها وعدم التهجم على الله بنفي ما أثنى به على نفسه.

٣- وقطع الطمع عن إدراك الكيفية.

لو متم يا إخوان وأنتم على هذا المعتقد، أترون أن الله يوم القيامة يقول لكم: لِمَ نزَّهتموني عن مشابهة الخلق، ويلومكم على ذلك؟ لا، وكلا والله لا يلُومُكم على ذلك، أترون أنه يلومُكُم على أنكم آمنتم بصفاته وصدقتموه فيما أثنى به على نفسه، ويقول لكم: لِمَ أثبتُّم لي ما أثبتُّ لنفسي أو أثبتَه لي رسُولِي؟ لا والله لا يلومكم على ذلك، ولا تأتيكم عاقبةٌ سيِّئَةٌ من ذلك، كذلك لا يلومُكم اللهُ يوم القيامة ويقول لكم: لِمَ قطعتم الطمع عن إدراك الكيفية ولَمْ تُحَدِّدُوني بكيفية مدرَكَة.

ثم إنا نقول: لو تنطع متنطع وقال: نحن لا ندرك كيفية (نزول) منزهة عن نزول الخلق، ولا ندرك كيفية (يد) منزهة عن أيدي الخلق، ولا ندرك كيفية (استواء) منزهة عن استواءات الخلق، فبَيِّنُوا لنا كيفيةً معقولةً مُنَزَّهَةً تدركُها عقولُنا، فنقول أولاً: هذا السؤال الذي قال فيه مالك بن أنس: «والسؤال عن هذا بدعة»، ولكن نجيب ونقول: أعرفت أيها المتنطع السائل الضال كيفية الذات المقدسة الكريمة المتصفة بصفة النزول، وصفة اليد، وصفة الاستواء، وصفة السمع والبصر والقدرة والإرادة والعلم؟

فلابد أن يقول: لا، فنقول: معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، إذ الموصوفات تختلف باختلاف ذواتها.

قال الشارح:

وهذا كلام حسن نفيس، ودائمًا ما يردده الشيخ رحمه ويدندن حوله، فمدار الكلام في باب صفات الله عز وجل على هذه الأسس الثلاثة:

الأول: تنزيه الله سبحانه إذ {ليس كمثله شيء}.

الثاني: إثبات صفاته سبحانه بلا تشبيه أو تمثيل، كما قال {وهو السميع العليم}.

الثالث: قطع النظر عن إدراك الكنه، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية، كما قال: {لا يحيطون به علما}.

فمن حقق الإيمان على هذا النحو فهو الناجي يوم القيامة بإذن الله، فهل ترى أيها العبد أن الله سائلك يوم القيامة: لم نزهتني عن مشابهة الخلق، وهل يلومك على ذلك؟

هل يلومك أو يعاقبك على أنك اعتقدت وآمنت بما دل عليه قوله: {ليس كمثله شيء} من التنزيه والتقديس عن مماثلة خلقه؟

هل يلومك ربك أو يعاقبك يوم القيامة، أو يقول لك: لم اعتقدت أني استويت على العرش استواءً يليق بي؟

هل يسألك ربك: لم أثبتَّ لي ما أثبتُّ لنفسي، وأثبته لي رسولي صلى الله عليه وسلم؟

هل يسألك ربك: لم آمنتَ بما قلتُه ولم صدقتني فيما ذكرتُه؟ ولِمَ لَمْ تستدرك عليَّ أو تؤول كلامي أو تحرفه؟

هل يمكن أن يسألك ربك: لم قطعت الطمع عن إدراك كيفية صفاتي ولم تحددها بكيفيات مدركة للبشر؟

هل يمكن أن يحدث هذا؟ كلا والله لا يكون ذلك أبدا.

لكن الذي قال إن {استوى} بمعنى (استولى)، ولو آمنا بالاستواء نكون قد مثلنا الله بخلقه! هذا متعرض – والعياذ بالله– لمصيبة كبرى، وأن يقول له ربه: أنت كذبتَ عليَّ، أنا قلت: {استوى} وأنت قلت: (استولى)، كما قلت لبنى إسرائيل: {وقولوا حطة} فقالوا: (حنطة).

فقد وصف الله عز وجل هؤلاء المبدِّلين من بني إسرائيل بالظلم وإنه سائلهم عن ظلمهم وتبديلهم، قال تعالى: {فبدَّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم}، فليس المؤول بمأمن إذن من أن يقال له يوم القيامة: {فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم}.

لكن من نزَّه الله عز وجل عن مشابهة خلقه وأثبت له ما أثبته لنفسه، وقطع الطمع عن إدراك الكيفية لن يلومه ربه على ذلك ولن يقول لهم: لِمَ قطعتم الطمع عن إدراك الكيفية ولِمَ لَمْ تُحدِّدُوني بكيفية مُدرَكَةٍ؛ لأن هؤلاء آمنوا بقوله سبحانه: {ولا يحيطون به علما}، فعلموا أنهم وجميع الخلق لن يستطيعوا أن يصلوا إلى معرفة ذلك لعظمته وكماله سبحانه، ولضعف علمنا وعجزنا عن أن نحيط بشيء من علمه إلا بما شاء سبحانه.

فاستمسك أيها السُّني بعقيدتك وإن شنَّع عليك المشعنون أو لمزك أهل البدع الأفَّاكون فإنك على الصراط المستقيم.

ثم ذكر رحمه الله رَدَّيْنِ مجملين يرد بهما على أهل البدع المتنطعين الذين يقولون: نحن لا ندرك كيفية (نزول) منزهة عن نزول الخلق، ولا ندرك كيفية (يد) منزهة عن أيدي الخلق... إلخ».

أما الرد الأول فهو مأخوذ عن الإمام مالك رحمه الله، وهو قوله لمن سأله عن الاستواء كيف هو، قال: «السؤال عنه بدعة»، أي لا تدخلني في قضية الكيفية، فالكيف غير معقول، ولكن هناك رد أحسن غير هذا، وهو الرد الثاني، وفيه قلب السؤال على السائل، فإذا سأل عن كيفية صفات الله كيف هي؟، قلنا: فأخبرنا أيها المتنطع السائل عن ذات الله المقدسة الكريمة المتصفة بتلك الصفات كيف هي؟

فإن قال: أثبتُ له ذاتًا لا كذوات المخلوقين، قلنا: فيلزمك أن تثبت له صفات لا كصفات المخلوقين إذ معرفة الصفات فرع عن معرفة الذات.

ولذا قال الشيخ هنا: معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات، إذ الموصوفات تختلف باختلاف ذواتها

ونقول له أيضًا: هل أدركت كيفية الحياة والإرادة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر —وهي صفات المعاني السبعة– حين أثبتَّها؟

فإن قال: لا، وليس له جواب آخر، قلنا له: فأثبت باقي الصفات كذلك على وجه يليق بالله مع قطع الطمع عن إدراك كيفيتها.

قال المصنف رحمه الله:

ونضرب مثلاً – ولله المثل الأعلى – فإن الأمثال لا تضرب لله ولكن الأَحْرَويات لا مانع منها كما جاء بها القرآن، فنقول مثلاً كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله: لفظ (رأس) الراء والهمزة والسين، (رأس) هذه الكلمة أضفها إلى المال، وأضفها إلى الوادي، وأضفها إلى الجبل قل: رأس المال، رأس الوادي، رأس الجبل، فانظر ما صار من الاختلاف بين هذه المعاني بحسب هذه الإضافات، وهذا في مخلوق ضعيف مسكين، فما بالك بالبون الشاسع الذي بين صفة الخالق جل وعلا وصفة المخلوق.

قال الشارح:

قوله: «الأَحْرَويات»: جمع أحرى وهي بمعنى «الأولويات» يعني قياس الأولى، ولذلك لا يجوز في ضرب الأمثال لله عز وجل إلا قياس الأولى، ومعناه: كل صفة كمال للمخلوق لا نقص فيها بوجه من الوجوه فالله أحق بها من المخلوق وكل صفة نقص يتنزه عنها المخلوق فالخالق أولى بالتنزه عنها، فإن واهب الكمال أولى به.

ثم ذكر رحمه الله المثال الذي أورده الإمام ابن القيم في «مختصر الصواعق (ص 309)» ليدلِّلَ به على أن خصائص الإضافات لا تُخْرِج اللفظ عن حقيقته وتوجب جعله مجازًا عند إضافته إلى محل الحقيقة، وأن هذا من مثار أغلاط القوم.

فقولنا «رأس» هذه الكلمة يختلف معناها بحسب ما أضيفت إليه، فإضافة الرأس إلى المال أو إلى الجبل أو إلى الوادي أو إلى الإنسان لم يلزم منه التشابه والتماثل بين هذه الرؤوس بل اختلف معناها بحسب ما أضيفت إليه –وهو الموصوف–، وكل هذه مخلوقات، فما بالكم بما يوصف به رب العالمين سبحانه.

قال المصنف رحمه الله:

وختاماً يا إخوان نوصيكم وأنفسنا بتقوى الله وأن تتمسكوا بهذه الكلمات الثلاث:

١– أن تنزهوا ربكم عن مشابهة صفات الخلق.

٢– أن تؤمنوا بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم إيماناً مبنيًّا على أساس التنزيه على نحو {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

٣– وتقطعوا الطمع في إدراك الكيفية؛ لأن الله تعالى يقول: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}.

قال الشارح:

لخص المصنف رحمه الله المنهج القويم في دراسة الأسماء الحسنى والصفات العليا لله ربِّ العالمين، وذلك من خلال هذه الأصول الثلاثة، ليكون القارئ على ذُكرٍ منها، وقد سبق شرحها بالتفصيل فلا داعي للتكرار.

قال المصنف رحمه الله:

ونريد أن نختم هذه المقالة بنقطتين([101]):

إحداهما: أنه ينبغي للمؤولين أن ينظروا في قوله تعالى لليهود: {وقولوا حِطَّةٌ} فإنهم زادوا في هذا اللفظ المنَزَّل نونًا فقالوا: حِنطَة، فسمَّى الله هذه الزيادة تبديلاً فقال في البقرة: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، وقال في الأعراف: {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ}، وكذلك المؤوِّلون للصفات قيل لهم: {استوى} فزادوا لامًا فقالوا: استولى؛ فانظر ما أشبه لامهم هذه التي زادوها بنون اليهود التي زادوها، ذكر هذا ابن القيم.

الثانية: أنه ينبغي للمؤولين أن يتأملوا آية من سورة الفرقان وهي قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}، ويتأملوا معها قوله تعالى في سورة فاطر: { وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ }، فإن قوله في الفرقان: {فسئل به خبيرا}، بعد قوله: {ثم استوى على الرحمن} يدل دلالةً واضحةً أن الله الذي وصف نفسه بالاستواء خبير بما يصف به نفسه لا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها، ويُفهم منه أن الذي ينفى عنه صفة الاستواء ليس بخبير، نعم هو واللهِ ليس بخبيرٍ.

وصلى الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

قال الشارح:

ختم المصنف رحمه الله رسالته بالتذكير بأمرين:

أما الأول: فهو خطورة التحريف باسم التأويل وأنه من فعل المغضوب عليهم وهم اليهود، وهذا يكفي لزجر العاقل عن الوقوع فيما وقع فيه شرار الخلق وقتلة الأنبياء والرسل، وقد جاء ذكر جريمتهم مصرحا بها وتقبيحا لها في القرآن العظيم، قال الله تعالى {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ

[101]) هذه الخاتمة ورد ذكرها في طبعة الجامعة الإسلامية والدار السلفية بالكويت وبنهايتها تنتهي الرسالة عندهما، وهي غير مثبتة بمطبوعة «عالم الفوائد».

سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}.

ومع هذا النص القرآني والتحذير الرباني من الوقوع في مثل ما وقع فيه اليهود حرف هؤلاء المتكلمون صفات الله تعالى ومنها صفة الاستواء فقال الله {الرحمن على العرش استوى} فقال المعطلة: لم يستو وإنما: (استولى)، ولولا أن الله حفظ كتابه من التحريف لحرفوا اللفظ كذلك لا المعنى فقط ولحذفوها وبدَّلوها من المصاحف.

قال ابن القيم رحمه الله:

أُمِرَ اليهودُ بأن يقولوا حِطَّةٌ ... فأَبَوْا وقالوا حنطةٌ لهوانِ

وكذلك الجهمِيُّ قيل له استوَى ... فأَبَى وزادَ الحرفَ للنقصانِ

قال استوَى استَولَى وذا مِن جهلِه ... لغةً وعقلًا ما هما سِيَّانِ

عشرون وجهًا تُبطِلُ التأويلَ باسـ ... تولى فلا تَخرُجْ عن القرآنِ

قد أُفرِدَت بمصنَّفٍ هو عندنا ... تصنيفُ حَبرٍ عالمٍ ربانِيّ

ولقد ذكرنا أربعين طريقةً ... قد أبطَلَت هذا بحُسنِ بيانِ

هي في الصَّواعقِ إن تُرِدْ تحقيقَها ... لا تختفِي إلا على العميانِ

نُونُ اليهودِ ولامُ جَهمِيٍّ هما ... في وَحيِ ربِّ العرشِ زائدتانِ

وكذلك الجهميُّ عَطَّلَ وَصفَه ... ويهودُ قد وُصفوه بالنقصانِ

فهُما إذاً في نفيِهم لصفاتِه ... العُليا كما بَيَّنتُه أَخَوَانِ[102]

---

[102]) القصيدة النونية (1/ 121)

وأما التنبيه الثاني: فهو دعوة لذلك المؤول للصفات أن ينتهيَ عن غَيِّهِ ويعودَ لرشده ويُسلِّمَ لربّه سبحانه ويعلمَ أنَّ الله الذي وصفَ نفسَه بالاستواء وغيرها من الصفات خبير بما يصف به نفسه لا تخفى عليه الصفة اللائقة من غيرها، وهو الله العليم الخبير الحكيم سبحانه.

وهذه لفتة طيبة من ذاك المفسر الكبير رحمه الله تعالى، حتى لا يأتي أحد هؤلاء ليقول: ما ينبغي أن يوصف الله بالاستواء، فيقال له: أأنت أعلم بالله منه سبحانه وهو الخبير؟!

إن ربُّ العالمين هو الخبير الذي وصف نفسه بهذه الصفات فكأنها إشارة إلى عدم التعرض للاستدراك على رب العالمين سبحانه وتعالى.

ثم ختم رحمه الله كلامه هنا بقوله:

"وصلى الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين."

فاحتوت هذه الخاتمة على ما تدور حوله رسالة الشيخ المفسر الشنقيطي رحمه الله وقد اقتبسها من كتاب الله تعالى في خاتمة سورة الصافات:

سبحان ربك رب العزة عما يصفون: تنزيه الله تعالى عن كل آفة ونقص وعيب وعن مشابهة المخلوقين.

وسلام على المرسلين: لسلامة ما وصفوا به ربهم إذ وصفوه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وفيها إثبات الصفات لله تعالى على ما يليق به.

والحمد لله رب العالمين: فله جميع معاني الحمد، ومَن هذه صفته فهو الموصوف بالكمال والجلال والعزة والسلطان فلا يحاط به علما.

وبهذه الجملة انتهت محاضرة الشيخ رحمه الله تعالى التي ألقاها بالجامعة الإسلامية وقد لخص في هذه الرسالة الطيبة المنهج الذي ينبغي أن يسير عليه المؤمن في باب الأسماء والصفات.

****

ثم أورد المؤلف مقارنة بين ما سمَّوه مذهب السلف ومذهب الخلف، وأتى بها في «رسالة آداب البحث والمناظرة» وهي غير موجودة في المحاضرة أصلاً، وفيها:

قال المصنف رحمه الله:

[مقارنة بين ما سَمَّوه مذهبَ السَّلفِ ومذهبَ الخَلفِ]

ثم إنا نريد إنهاء البحث بالمقارنة بين ما يسمونه مذهب السَّلف ومذهبَ الخلفِ وقولهم: إن مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أحكم وأعلم فنقول:

أولاً: وصفوا مذهب السلف بأنه أسلم، وهي صيغة تفضيل من السلامة، وما كان يفوق غيره ويفضله في السلامة، فلا شك أنه أعلم منه وأحكم.

ثانياً: اعلموا أن المؤولين ينطبق عليهم بيت الشافعي رحمه الله:

رَامَ نفعاً فضَرَّ مِن غيرِ قَصدٍ

ومِن البِرِّ ما يَكونُ عُقوقًا

قال الشارح:

يعني هم يقولون: مذهب السلف أسلم، ومذهبنا أعلم وأحكم. سبحان الله! كيف يكون أسلم، ومعكم أنتم الأعلم والأحكم.

والأسلم دائماً يكون هو الأعلم والأحكم، يعني لما أقول لك: هذا الطريق يؤدى إلى المكان الفلاني وهو أسلم طريق، هل يكون هناك طريق أفضل منه أعلم وأحكم؟! فهذا كلام متناقض.

وأما مناسبة إيراد بيت الشافعي رحمه الله فظاهر، فهؤلاء راموا وقصدوا الخير –فيما يزعمون– ولكن ليس كل قاصد للخير يدركه، قال تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}.

قوله: «ومن البر ما يكون عقوقًا»: يعني أحياناً تجد إنسانًا يريد أن يبر أباه وأمه، أو يبر أحدًا من الناس فيضرهم وهو يقصد النفع، فليس كلُّ بِرٍّ يكون نافعًا، بل من البرِّ ما يكون عقوقًا؛ لأنَّه يضرُّه.

قال المصنف رحمه الله:

وإيضاح المقارنة: أن مَن كان على مُعتَقَد السَّلف الصالح إذا سمع مثلاً قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} امتلأ قلبه من الإجلال والتعظيم والإكبار لصفة رب العالمين التي مدح بها نفسه وأثنى عليه بها، فجزم بأن تلك الصفة التي تمدح بها خالق السماوات والأرض بالغة من غايات الكمال والجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات الخلق؛ لأن الصنعة [103] لا يمكن أن تشبه صانعها في ذاته، ولا في شيء من صفاته.

وبإجلال تلك الصفة وتعظيمها وحملها على أشرف المعاني اللائقة بكمال من وصف بها نفسه وجلاله، يسهل على ذلك المؤمن السلفي أن يؤمن بتلك الصفة، ويثبتها لله كما أثبتها الله لنفسه على أساس التنزيه فيكون أولاً: منزِّهاً سالماً من أقذار التشبيه

وثانياً: مؤمناً بالصفات، مصدقاً بها على أساس التنزيه؛ فيكون سالماً من أقذار التعطيل.

فيجمع التنزيه والإيمان بالصفات على نحو {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، فمعتقدُه طريقُ سلامةٍ محققةٍ؛ لأنه مبني على ما تضمنته آية {ليس كمثله شيء} الآية من التنزيه، والإيمان بالصفات فهو تنزيه من غير تعطيل، وإيمان من غير تشبيه ولا تمثيل، وكل هذا طريق سلامة محققة، وعمل بالقرآن؛ فهذا هو مذهب السلف.

قال الشارح:

بدأ المصنف رحمه الله بذكر حال أهل الحق وهم من كانوا على معتقد السلف الصالح، وحالهم في التعامل مع نصوص القرآن والسنة المتعلقة بصفات الرب سبحانه وتعالى، وأنها تقع من قلوبهم موقع الإجلال والتعظيم والإكبار، ومن كان كذلك سهل عليه جدًّا الإيمان بتلك الصفات وحملها على أشرف المعاني اللائقة بالله عز وجل لأنه آمن أن الله لا يماثله شيء من خلقه.

فالقاعدة عند سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم:

---

[103]) في طبعة عالم الفوائد والسنة: (الصفة) وهو خطأ ظاهر ولا يناسب السياق، والصواب ما أثبتناه.

إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل ولا تحريف ومن غير تشبيه ولا تكييف، ونفي ما نفاه الله عن نفسه وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال المصنف رحمه الله:

وأما ما يسمونه مذهب الخلف؛ فالحامل لهم فيه على نفى الصفات وتأويلها هو قصدهم تنزيه الله عن مشابهة الخلق، ولكنهم في محاولتهم لهذا التنزيه وقعوا في ثلاث بلايا ليست واحدة منها إلا وهي أكبر من أختها.

الأولى من هذه البلايا الثلاث: أنهم إذا سمعوا قول الله تعالى: {ثم استوى على العرش} زعموا أن ظاهر الاستواء في الآية هو مشابهة استواء المخلوقين، فتهجموا على ما وصف الله به نفسه في محكم كتابه، وادعوا عليه أن ظاهره المتبادر منه هو التشبيه بالمخلوقين في استوائهم.

فكأنهم يقولون لله: هذا الاستواء الذي أثنيت به على نفسك في سبع آيات من كتابك ظاهره قذر نجس لا يليق بك لأنه تشبيه بالمخلوقين، ولا شيء من الكلام أقذر وأنجس من تشبيه الخالق بخلقه. سبحانك هذا بهتان عظيم! وهذه هي البلية الأولى التي هي التهجم على نصوص الوحي وادعاء أن ظاهرها تشبيه الخالق بالمخلوق، وناهيك بها بلية.

قال الشارح:

أول بلية وقعوا فيها أنهم شبهوا، مع أن هدفهم أصلاً هو محاربة التشبيه ولكن للأسف وقعوا في التشبيه حينما ادعوا أن من يأخذ هذه النصوص على ظاهرها مشبه، وهذا التشبيه الذي وقعوا فيه هو الذي جرهم إلى التعطيل ومن ثَمَّ التحريف. فساعة أن يسمعوا صفة لله عز وجل كالاستواء مثلًا قالوا: نؤولها! لماذا؟ قالوا: لأننا لا نعقل إلا استواءً يماثل استواء المخلوقين، فأول ما يتبادر إلى ذهنهم أن الآية ظاهرها التشبيه.

قال المصنف رحمه الله:

ثم لما تقررت هذه البلية في أذهانهم، وتقذرت قلوبهم بأقذار التشبيه، اضطروا بسببها إلى نفى صفة الاستواء فراراً من مشابهة الخلق التي افتروها على نصوص القرآن أنها هي ظاهرها، ونفي الصفة التي

أثنى الله بها على نفسه من غير استناد إلى كتاب أو سنة هو البلية الثانية التي وقعوا فيها فحملوا نصوص القرآن أولاً على معان غير لائقة بالله، ثم نفوها من أصلها، فراراً من المحذور الذي زعموا.

قال الشارح:

يعني هم افتروا على القرآن وكذبوا عليه وظنوا به ظن السوء، {وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين} حيث ظنوا أن ظاهر نصوص القرآن يفيد التمثيل والتشبيه فحينئذ لجأوا إلى تعطيلها، فنفوا الصفة التي أثبتها الله لنفسه دون مستند أو دليل من الكتاب والسنة وتلك هي البلية الثانية.

قال المصنف رحمه الله:

والبلية الثالثة: أنهم يفسرون الصفة التي نفوها بصفة أخرى من تلقاء أنفسهم، من غير استناد إلى وحي، مع أن الصفة التي فسروها بها هي بالغة غاية التشبيه بالمخلوقين، فيقولون: {استوى} ظاهره مشابهة استواء المخلوقين، فمعنى استوى {استولى}، ويستدلون بقول الراجز في إطلاق الاستواء على الاستيلاء:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

ولا يدرون أنهم شبهوا استيلاء الله على عرشه الذي زعموه باستيلاء بشر بن مروان على العراق، فأي تشبيه بصفات المخلوقين أكبر من هذا؟ وهل يجوز لمسلم أن يشبه صفة الله التي هي الاستيلاء المزعوم بصفة بشر التي هي استيلاؤه على العراق؟

وصفة الاستيلاء من أوغل الصفات في التشبيه بصفات المخلوقين، لأن فيها التشبيه باستيلاء مالك الحمار على حماره، ومالك الشاة على شاته، ويدخل فيها كل مخلوق قهر مخلوقاً واستولى عليه، وفي هذا من أنواع التشبيه ما لا يحصيه إلا الله.

قال الشارح:

وتلك هي البلية الثالثة حيث قالوا على الله بغير علم، وهذا من أعظم المنكرات فجرهم اعتقاد التشبيه الذي راموا تنزيه الله منه إلى الوقوع في تشبيهٍ أخطر مما ظنوه أولًا ومن ثَمَّ الوقوع في التحريف، وقد ضرب المصنف

رحمه الله على ذلك مثالًا بتأويلهم الاستواء بمعنى الاستيلاء. فنفوا استواء الله على عرشه لأنه يوهم عندهم التشبيه وقالوا: هو بمعنى استواء المخلوقين، فوجب تأويله إلى الاستيلاء، واستدلوا على هذا التحريف الذي زعموه تأويلًا ببيت ينسب إلى رجل نصراني يقال له الأخطل، قال فيه:

قد استوى بشر على العراق

من غير سيف أو دم مهراق

قالوا: استوى على العراق يعني استولى عليها، فالعراق لم تكن في يد بشر فحارب وقاتل إلى أن أخذها، ونقول لهم: فهل كان العرش في يد أحد غير الله، فصارع ربُّ العالمين غيره حتى استولى عليه؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ولذا قال رحمه الله متعجبًا: «فأي تشبيه بصفات المخلوقين أكبر من هذا»: أنت فررت من الاستواء فجعلته استيلاءً، فكان الاستيلاء شرًّا في مسألة المشابهة مما ظننتموه مشابهة في الاستواء.

ولذا فإن مؤدى ما ذهبوا إليه من التحريف خطير جدًّا وهو أنه كان هناك إلهٌ آخر مستولياً على العرش حتى استخلصه الرب منه واستولى عليه، والله عز وجل يقول: {قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا}، ويقول: {ما اتخذ الله من ولد و ما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق و لعلا بعضهم على بعض}، فمؤدى كلامهم –كما سبق–: أن العرش كان في يد إله آخر لأنه لن يكون في يد ملك أو يد انسان، فالعرش شيء جليل القدر عظيم الخطر، فهو أكبر من السماوات والأرض، ولكن هؤلاء كالببغاوات التي تردد الكلام بدون روية أو تفكير، ثم يدَّعون أنهم أهل العقل وأهل التفكير، ويرموننا نحن بأننا أهل النقل بدون تفكير!

فتأمل يا رعاك الله لازم كلامهم لتتبين بطلان مذهبهم وفساد اعتقادهم.

قال المصنف رحمه الله:

فإن زعم من شبه أولاً، وعطل ثانياً، وشبه ثالثاً أيضاً أن الاستيلاء المزعوم منزه عن مشابهة استيلاء المخلوقين، قلنا: نحن نسألك ونطلب منك الجواب بإنصاف: أيهما أحقُّ بالتنزيه عن مشابهة الخلق؛ الاستواء الذي مدح الله به نفسه في محكم كتابه وهو نفس القرآن الذي يُتلَى، ولِتالِيهِ بكلِّ حرفٍ منه

عشرُ حسناتٍ لأنَّه كلام الله، أم الأحقُّ بالتنزيهِ هو الاستيلاءُ الذي جِئتُم به من تِلقاءِ أنفسِكم من غير استنادٍ إلى وَحيٍ؟

ولا شك أن الجواب الحق: أن اللفظ الوارد في القرآن أحق بالتنزيه والحمل على أشرف المعاني وأكملها، من اللفظ الذي جاء به معطل من كيسه الخاص لا مستند له من الوحي.

وبهذه الكلمات القليلة يظهر لكم أن مذهب السلف أسلم وأحكم وأعلم.

وقد بسطنا هذه المقارنة في غير هذا الموضع فاختصرناها هنا، والعلم عند الله تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

محمد الأمين الشنقيطي

قال الشارح:

يعني بعد كل هذا اللف والدوران أيها المؤوِّل قلت في النهاية: استيلاء ليس كاستيلاء البشر، فهلا قلت منذ البداية: استواءً ليس كاستواء البشر! لكنك شبَّهت وعطَّلت وحرَّفت ثم شبَّهت ثانية، فكانت النتيجة: استيلاء ليس كاستيلاء البشر، فلَم تأت بصفة خاصة بالله عز وجل، بل أوغَلتَ في التشبيه، وهذا من تلاعب الشيطان بهؤلاء المبتدعة الذين لم يقدروا الله حق قدره ولم يعظموا نصوص الوحي حق التعظيم فكان مآلهم إلى التشبيه والتعطيل والتحريف، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين

كتبه/

عادل السيد

جمادى الأولى 1443هـ